مو يان

MO YAN

الحائز على جائزة نوبل للآداب لعام 2012

莫言

التغيير

CHANGE

رواية



الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

ترجمها إلى الإنكليزية
هاورد غولدبلات

ترجمها إلى العربية
زينة إدريس



1

يُفترض بـي في الأساس رواية أحداث وقعت بعد عام 1979، لكنّ أفكاري ترجعني دائماً إلى عصر يوم خريفي من عام 1969. في ذلك اليوم، أرسلت الشمس الساطعة أشعّتها على أزهار الأقحوان الذهبية المتفتّحة، وكان الإوزّ البرّي مهاجراً إلى الجنوب. عندما أبلغ تلك النقطة، لا أستطيع الانفصال عن أفكاري. تشتمل ذكرياتي على "أنا" تلك الأيّام، صبـيّ وحيد طُرد من المدرسة، لكنّه انجذب إلى الجلبة المنبعثة من فنائها. كنتُ قد تسلّلت عبر البوّابة غير المراقبة، وقلبـي ينبض بقوّة وكأنّه في حلقي من شدّة الخوف، ثمّ عبرت الممرّ الطويل المعتم لدخول باحة المدرسة المركزية، التي كانت عبارة عن ساحة محاطة بالمباني. إلى اليسار، ثُبّت وتد من خشب السنديان عُلّقت عليه عارضة بالأسلاك، وتدلّى منها جرس حديدي صدئ. أمامها، وقف شخصان يلعبان كرة الطاولة على طاولة بسيطة من الإسمنت المثبّتة على قاعدة من الطوب، وكانا محطّ اهتمام كبير من حشد هو مصدر الضجّة. كانت المدرسة في عطلة الخريف، ومع أنّ معظم المتفرّجين كانوا من الأساتذة، إلاّ أنّه كان بينهم عدد من الطالبات الجميلات المنتميات إلى فريق كرة الطاولة واللواتي شكّلن مصدر فخر المدرسة. كنّ يتدرّبن لخوض بطولة على صعيد البلاد، ضمن احتفال اليوم الوطني في الأوّل من أكتوبر. لذلك، وبدلاً من ترك المدرسة خلال العطلة، مكثن فيها للتدرّب. ولكونهنّ بنات كوادر الحزب الشيوعي في المزرعة العامّة، كنّ يتمتّعن بصحّة جيّدة وببشرة فاتحة، بفضل نظام غذائي جيّد. كنّ يرتدين أيضاً ملابس زاهية الألوان، ويبدو عليهنّ من النظرة الأولى أنّهنّ ينتمين إلى طبقة مختلفة عنّا نحن الأولاد المساكين. كنّا نرفع رؤوسنا للنظر إليهنّ، لكنّهنّ لا يلاحظننا.

كان أحد اللاعبَين هو أستاذ الرياضيات، ليو تيانغوانغ، وهو رجل قصير القامة ذو فم كبير بشكل مذهل. سمعنا أنّه يستطيع إقحام قبضته بكاملها في فمه ذاك، لكنّ أحداً منّا لم يره يفعل ذلك. غالباً ما تحضرني صورة له وهو واقف على المنصّة يتثاءب بوسع فمه، إذ كان فمه المفتوح مشهداً لا يفوّت على الإطلاق. أحد ألقابه كان "فرس النهر". في الواقع، لم يسبق لأحد منّا أن شاهد فرس نهر حقيقياً، ذاك الحيوان الذي يدعى بالصينية . كانت هذه الكلمة شبيهة بكلمة ، أي ضفدع، وهو مخلوق آخر كبير الفم. لهذا السبب كان من الطبيعي أن نطلق عليه اسم ليو الضفدع. لم يكن هذا من اختراعي، لكن بعدما سأل عن الموضوع، قرّر أنّه كذلك. وإطلاق لقب على ليو الضفدع، ابن البطل ونائب رئيس اللجنة الثورية في المدرسة، كان جرماً شنيعاً، بحيث أنّ طردي من المدرسة ومن الحرم المدرسي كان أمراً منطقيّاً ومحتوماً.

لطالما كنت ولداً خجولاً عاثر الحظّ، وغالباً ما أتى ذكائي على حساب مصلحتي. على سبيل المثال، إن حاولت تملّق أحد الأساتذة، يعتقد أنّني أسعى إلى توريطه في المشاكل. لا يمكنني إحصاء عدد المرّات التي سمعت أمّي تقول فيها: "يا بنيّ، أنت كالبومة التي تدمّر سمعتها بالإعلان عن نبأ سارّ!" وكانت على حقّ. فما من أحد يقرن بيني وبين شيء جيّد أو ذي قيمة. لكن إن حدث أمر سيّئ، جميع الأصابع تشير إليّ. لطالما ردّد الناس أنّني متمرّد، وأنّ تفكيري ضعيف، وأكره المدرسة وأساتذتي. وكانوا مخطئين جدّاً! في الحقيقة، كنت أحبّ المدرسة، وأكنّ مشاعر خاصّة لأستاذي ليو ذي الفم الكبير. هذا لأنّني كنت ولداً مُنيَ بفم كبير. فالصبـيّ في إحدى قصصي - "الفم الكبير" - كان مستنِداً إلى قصّتي فعلاً. كنّا أنا والأستاذ ليو، والحقّ يقال، نعيش معاناة واحدة، بحيث ينبغي لنا أن نبدي تفهّماً متبادلاً، أو على الأقلّ، تعاطفاً متبادلاً مع بعضنا البعض. ولو أنّه ثمّة مَن كنت لأتجنّب إطلاق لقب عليه، فإنّه هو. كان بإمكان أيّ إنسان رؤية ذلك، أيّ إنسان باستثنائه. هكذا جرّني من شعري إلى مكتبه، ثمّ دفعني على الأرض وصاح: "أنت... أنت... أنت مثل شحرور يسخر من خنـزير أسود! اذهب وألقِ نظرة على فمك الجميل في بركة قذارة!"

حاولت أن أشرح له، لكنّه لم يُعطني الفرصة. هكذا، تعرّض ولد طيّب كان مولعاً بليو ذي الفم الكبير - أي أنا، مو ذو الفم الكبير - للطرد من المدرسة. وعلى الرغم من أنّ الأستاذ ليو أذاع خبر طردي المخزي أمام الجميع، إلاّ أنّني بقيت أحبّ مدرستي كثيراً، إلى حدّ أنّني بحثت عن طرق للتسلّل إلى باحة المدرسة كلّ يوم، حاملاً حقيبة كتب بالية على كتفي.

في البداية، كان الأستاذ ليو يطلب منّي شخصيّاً أن أرحل. وعندما كنت أرفض، كان يجرّني إمّا بأذني أو بشعري. إلاّ أنّني كنت أتسلّل عائداً إلى الداخل قبل أن يصل إلى مكتبه. عندها، أصبح يطلب من بعض الأولاد الأكبر سنّاً القيام بذلك نيابة عنه. وعندما أرفض الرحيل، يحملونني، إلى خارج البوّابة، ويلقونني في الشارع. لكنّني كنت أرجع إلى الباحة مجدّداً قبل عودتهم إلى صفوفهم، وأقبع في إحدى الزوايا قرب الجدار، منكمشاً على نفسي، لكي لا يراني أحد، ولكي أستجدي شيئاً من التعاطف وأنا أصغي إلى الأصوات المرحة، وأشاهد الأولاد وهم يقفزون ويمرحون. كانت كرة الطاولة هي المفضّلة لديّ. أتفرّج عليها حتّى أفقد إحساسي بالمكان، وغالباً بعينين مليئتين بالدموع أو وأنا أعضّ على قبضتي. وبعد مدّة من الزمن، توقّفوا عن محاولة إخراجي.

عصر هذا اليوم الخريفي بالذات، قبل أربعين عاماً، كنت قابعاً في الزاوية أشاهد ليو الضفدع يلوّح بمضرب كرة طاولة من تصميمه الخاصّ - كبير جدّاً وشكله شبيه برأس رفش جيش - في مباراة بينه وبين فتاة في صفّي تدعى لو وينلي. كانت هي أيضاً ذات فم كبير، في الحقيقة، لكنّ فمها يناسب وجهها تماماً، وليس كبيراً عليه مثل فمي وفم ليو. حتّى في ذلك الحين، عندما لم يكن الفم الكبير يُعتبر علامة جمال، كانت هي واحدة من أجمل الفتيات في المدرسة. وما زادها جاذبيّة هو أنّ والدها كان يقود شاحنة غاز 51 تعود ملكيتها للمزرعة العامّة، وكانت بالنسبة إلينا سريعة كالبرق وتسلب العقول. ففي تلك الأيّام، كان سائقو الشاحنات يأتون بعد الملوك مباشرة.

في إحدى المرّات، عندما كنت لا أزال في المدرسة، طلب منّا المدرّس كتابة موضوع إنشائي بعنوان "مثالي الأعلى"، فكتب نصف أولاد الصفّ أنّهم يرغبون في أن يصبحوا "سائق شاحنة". لكنّ خِيْ دجِيوُو، وهو ولد ضخم وطويل القامة، لديه حبّ شباب وشارب ملحوظ جعله يبدو أقرب إلى الخامسة والعشرين منه إلى سنّنا، كتب ببساطة: "لا أملك أيّ مثال أعلى آخر، فأنا لديّ مثال واحد، مثالي الأعلى هو أن أصبح والد لُوْ وينلي".

كان الأستاذ تشانغ معتاداً على قراءة أفضل المواضيع الإنشائية وأسوئها أمام الصفّ كلّه. لكن عوضاً عن إخبارنا باسم الطالب الذي كتب الموضوع، كان يجعلنا نخمّن بعد انتهائه. في تلك الأيّام، كان أبناء الأرياف يسخرون من الأشخاص الذين يتحدّثون المندارينية، حتّى في المدرسة. والأستاذ تشانغ هو الوحيد الذي تجرّأ على تعليمنا تلك اللهجة الغريبة. كان قد تخرّج من كلّية المعلّمين، ولم يتجاوز أوائل العشرينات من عمره. كان يمتاز بوجه هزيل وشاحب، وشعر قصير يفرقه جانباً. وكان يرتدي سترة غاباردين زرقاء، مع زوج من دبابيس الورق على ياقتها، وأكمام طويلة زرقاء. لا شكّ أنّه ارتدى سترات أخرى ذات ألوان وطرازات مختلفة، لأنّه من غير الممكن أن يكون قد ثابر على ارتداء السترة نفسها على مدار السنة. إلاّ أنّ السترة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بصورته في ذاكرتي، بدءاً من الأكمام الطويلة ودبابيس الورق، إلى السترة نفسها، ومن ثمّ وجهه، وملامحه، وصوته، وتعبير وجهه. وإن لم أفعل ذلك، لا أستطيع ببساطة استحضار صورته. في اللغة العامّية لفترة الثمانينيات، كان يدعى "البدين"، إلاّ أنّه أصبح في التسعينيات "الفتى الجميل". أمّا في أيّامنا، فمن الممكن أن يلقّب "الوسيم" وحسب، على ما أظنّ.

ثمّة على الأرجح طرق أكثر حداثة وشعبية لوصف شابّ حسن المظهر، لكن سيكون عليّ سؤال إحدى فتيات الجوار للتأكّد.

كان خِيْ دجِيوُو يبدو أكبر سنّاً بكثير من الأستاذ تشانغ. من المبالغ فيه القول إنّه يبدو أقرب إلى والد تشانغ، لكن لا يمكن لأحد الاعتراض على أنّه يبدو عمّ تشانغ. ما زلت أذكر كيف وقف الأستاذ تشانغ أمام الصفّ وقرأ موضوع خِيْ دجِيوُو بنبرة مليئة بالسخرية والمبالغة: "لا أملك أيّ مثال أعلى آخر، فأنا لديّ مثال واحد، مثالي الأعلى هو أن أصبح والد لُوْ وينلي".

في الواقع، بعد صمت وجيز ساد فيه الذهول، انفجر الصفّ ضاحكاً. كانت تلك الجمل الثلاث هي مجموع موضوع الإنشاء، الذي حمله الأستاذ من الزاوية وهزّه بقوّة، وكأنّه يحاول استخراج شيء آخر منه.

قال الأستاذ تشانغ: "رائع، رائع حقّاً! دعونا نرى إن كنتم تستطيعون أن تخمّنوا أيّ عقل لامع كتبه". لم تكن لدينا أيّ فكرة، لذلك رحنا نلتفت يمنة ويسرة، وإلى الأمام والخلف،

على أمل إيجاد صاحب هذا الموضوع "الرائع"، إلى أن استقرّت أنظارنا على وجه خِيْ دجِيوُو. بما أنّه أكبر طلاّب الصفّ وأقواهم، كان يميل إلى مضايقة زميله على المقعد. لذلك، أجلسه الأستاذ تشانغ على آخر مقعد لطالبَين في آخر الصفّ، بمفرده. عندما استقرّت عليه أنظار الجميع، احمرّ وجهه قليلاً، على ما يبدو، وظننّا أنّه قد يكون محرجاً. لكنّ نظرة فاحصة أثبتت العكس. في الواقع، كان مسروراً من نفسه، كما بدا لنا من ابتسامة الطيش، والشرّ، والمكر تقريباً التي علت وجهه. وبما أنّ شفته السفلى كانت أقصر من العليا، فقد بانت أسنانه العلوية عندما ابتسم؛ لثّة أرجوانية، وأسنان صفراء، مع فجوة في الوسط. من حيله المفضّلة، كانت نفخ فقاعات صغيرة من تلك الفجوة، ومراقبتها وهي تطفو على نحو مغرٍ في الهواء. وهذا ما بدأ يفعله الآن، في اللحظة نفسها التي رماه بها الأستاذ بدفتر الإنشاء، وكأنّه يرمي كرة فريسبـي. إلاّ أنّ الدفتر لم يصل أبعد من المقعد الذي تحتلّه دو باوهوا، إحدى أفضل الطلاّب فعلاً.

باشمئزاز واضح، أمسكته وألقته خلفها. قال الأستاذ تشانغ: "خِيْ دجِيوُو، أخبرنا لماذا ترغب في أن تكون والد لو وينلي". إلاّ أنّه استمرّ بنفخ الفقاعات. فأمره تشانغ: "قف!" وقف خِيْ دجِيوُو بتكبّر وبلا اكتراث على السواء. "أخبرنا! لماذا تريد أن تكون والد لو وينلي؟"

بعد نوبة ضحك أخرى، وضعت لو وينلي، زميلتي على المقعد، رأسها على المكتب وانفجرت باكية.

حتّى هذا اليوم، لا أعرف السبب.

بدا خِيْ دجِيوُو أكثر غطرسة من أيّ وقت مضى وهو يتجاهل سؤال الأستاذ، إلاّ أنّ بكاء لو وينلي عقّد ما بدأ كحادثة بسيطة في صفّ دراسي، وشكّل موقف خِيْ تحدّياً مباشراً لسلطة تشانغ كأستاذ. وحين أفكّر بذلك الآن، أرى أنّ تشانغ ما كان ليقرأ موضوع خِيْ أمام الصفّ لو أنّه علِم إلام سيؤدّي ذلك، على الأقلّ هذا ما أظنّه. لكن من غير الممكن استرداد السهم بعد انطلاقه من القوس، لهذا السبب حاول امتصاص المشكلة وأمره قائلاً: "اخرج! اكرُج من هنا!" مستخدماً كليشيهاً شعبيّاً.

لم يفوّت زميلنا اللامع خِيْ دجِيوُو ثانية واحدة، بل حمل حقيبته المدرسية، وتمدّد على الأرض، ثمّ تكوّر مثل كرة وبدأ يتدحرج في المسافة الفاصلة بين صفَّي المقاعد. اختنقت الضحكة حالما غادرت حلقنا، وتحوّل مزاج الصفّ فجأة إلى الجدّية التامّة. فجأة، لم يعد في الأمر هزل، بل خيّمت الجدّية نتيجة للسخط العارم الذي ظهر على وجه الأستاذ، وصوت نحيب لو وينلي. في تلك الأثناء، لم يكن تدرحج خِيْ دجِيوُو سلساً، إذ إنّه لم يستطع السيطرة على اتّجاه حركته، وظلّ يرتطم بأقدام المقاعد، ممّا أعاق تقدّمه. ونظراً للطين الذي أدخلناه بأقدامنا، كانت الأرض المكسوّة بالطوب وعرة وغير مستوية. ولو أنّني كنت مكانه لما وجدت الوضع مريحاً على الإطلاق. لكنّ أحداً منّا لم يكن منـزعجاً بقدر تشانغ. ذلك أنّ انـزعاج زميلنا كان جسديّاً، أمّا انـزعاج الأستاذ فكان ذهنيّاً. فمعاقبة شخص ما بإيذاء نفسك ليس مبعثاً على الفخر، بل يُعتبر سلوك بلطجة. لكنّ الشخص القادر على فعل ذلك ليس برأيي بلطجيّاً عاديّاً. فثمّة جانب بطولي في السلوك البلطجي، وجانب بلطجي في السلوك البطولي. إذاً، هل كان خِيْ دجِيوُو بلطجياً أم بطلاً؟ لا تسألني! لكن سأخبرك بأمر واحد: إنّه الشخصيّة الرئيسة في هذه القصّة، ولك أن تتّخذ القرار.

تدحرج على طول المسافة المؤدّية إلى خارج الصفّ، ثمّ وقف ومشى مبتعداً، وقد غطّاه الطين، ومن دون أن ينظر إلى الخلف. صاح به الأستاذ تشانغ: "قف مكانك!" لكنّه تابع سيره. كان يوماً جميلاً مشمساً، تناهت فيه إلى أسماعنا زقزقة طائرَي عقعق بين أغصان شجرة حور خارج الصفّ. وبدا تقريباً كما لو أنّ ضوءاً ذهبياً يشعّ من جسمه، ومع أنّه لم يكن في مقدوري معرفة ما يدور في عقول الباقين، إلاّ أنّه كان في ذهني، في تلك اللحظة، شخصيّة بطولية بلا ريب، وهو يسير قُدماً، مصمّماً على عدم الالتفات إلى الوراء. بعد ذلك، بدأت تتساقط من يده قطع من الأوراق الممزّقة، التي دارت في الهواء قليلاً قبل أن تحطّ على الطريق المغبرّ. لا أعرف رأي بقيّة زملائي، لكنّني شعرت بالإثارة إلى حدّ أنّ قلبـي أخذ ينبض بقوّة بين ضلوعي. كان في الواقع يشقّ دفتر الإنشاء! يمزّقه إرباً! كان يقطع صلته نهائيّاً بالمدرسة، ينقلها من مقدّمة عقله إلى الخلف، ويسحق الأستاذ

تحت قدميه. كان أشبه بطائر يغادر قفصه، ويتحرّر، بحيث لا يخضع بعد اليوم إلى أنظمة وقوانين المدرسة. أمّا نحن، فكان علينا الاستمرار بتحمّل السيطرة الخانقة للأساتذة. وما عقّد المسألة هو أنّه عندما تدحرج خِيْ دجِيوُو من الصفّ، ومزّق كتبه، وانقطع عن الدراسة، لم يكسب إعجابـي فحسب، بل جعلني أحلم بالقيام بعمل مماثل يوماً ما. لم يمضِ وقت طويل حتّى طردني ليو ذو الفم الكبير من المدرسة، وهذا الأمر فطر قلبـي. فقد كنت مولعاً جدّاً بالمدرسة، وآلمني أن أضطرّ إلى الرحيل عنها. إذاً، من كان البطل ومن الجبان؟ ينبغي أن يكون الجواب واضحاً لكلّ من يقرأ هذا.

واصلت لو وينلي بكاءها حتّى بعد رحيل خِيْ دجِيوُو. فقال لها الأستاذ بنفاذ صبر واضح: "هذا يكفي! لم يقل إنّه يريد أن يكون أباك بالفعل، بل كان يعني إنّه يريد أن يكون سائق شاحنة أبيك. وحتّى لو أراد أن يكون والدك، فهل هذا يجعل منه والدك؟" نظرت لو وينلي إلى الأستاذ، ثمّ تناولت منديلاً وجفّفت دموعها. لم تعد تبكي. كانت تتمتّع بعينين كبيرتين، تفصل بينهما مسافة كبيرة، ممّا يضفي عليها تعبير غباء نوعاً ما عندما تنظر إليك.

لماذا وضعنا والد لو وينلي على قاعدة تمثال؟ إنّها السرعة. فالصبية يعشقون السرعة. إن سمعنا أصوات المحرّك ونحن نأكل، نضع الأطباق من أيدينا ونركض إلى أعلى الطريق في الوقت المناسب لرؤية أبيها وهو يمرّ بسرعة بشاحنته الغاز 51. أيّاً يكن الاتّجاه الذي يقصده، كان يُطير دائماً الدجاجات المذعورة التي تستجدي غذاءها على الطريق المكسوّ بالغبار، ويقذف الكلاب الكسولة في الخنادق على جانب الطريق. ببساطة، عندما تمرّ تلك الشاحنة، يطير الدجاج وتقفز الكلاب. وحتماً، كان يدهس بعضها، إلاّ أنّه لا يبطئ أبداً من سرعته. فيأتي مالك الدجاج أو صاحب الكلب بهدوء، ويلمّ الجثّة، ويحملها أو يجرّها إلى منـزله. إلاّ أنّ أحداً لم يجرؤ أبداً على رفّ عينه أو الذهاب للبحث عنه. كان كلّ ما يميّز تلك الشاحنة هو السرعة، وهي التي جعلت منها شاحنة. والدجاج والكلاب هي التي تتجنّب الشاحنات، وليس العكس. قيل لنا إنّ الغاز 51 كانت شاحنة سوفياتية، من مخلّفات عتاد حرب الخمسينيات لمقاومة العدوان الأميركي ومساعدة كوريا. وكانت ثقوب الرصاص التي خلّفتها الطائرات الأميركية على الصندوق دليلاً على أنّ الشاحنة مكلّلة بالمجد. فعندما اشتعلت نيران الحرب، حاربت ببسالة وسط وابل من الرصاص. والآن، في زمن السلم، تثير سحابة من الغبار وهي تذرع الطريق. في أثناء مرورها، كنّا نرى النظرة المتعجرفة على وجه والد وينلي من خلال زجاج النوافذ. كان يضع أحياناً نظّارة شمسية سوداء، وأحياناً أخرى لا يضعها. وكان يرتدي أحياناً قفّازات بيضاء، وأحياناً أخرى لا يرتديها. غير أنّني كنت أفضّله عندما يرتدي القفازات ويضع النظّارة معاً. والسبب بسيط، فقد شاهدت فيلماً عن الحرب مرّة، ارتدى فيه أحد عملائنا ملابس جنرال العدوّ، مع قفّازات بيضاء ونظّارة شمسية سوداء، وذهب في مهمّة تفقّدية لمواقع مدفعية العدوّ. مدّ يده داخل فوهة إحدى المدافع الكبيرة، وعندما سحبها، بدت أصابع قفّازه ملطّخة بالسواد. فتذمّر قائلاً بنبرة رسمية تقليدية: "أهكذا تتمّ العناية بالمعدّات العسكرية؟"

بدا زيّ العدوّ أنيقاً بشكل خاصّ على أحد عملائنا الشجعان، الذي جسّد مثالاً للروح البطولية. كان يتمتّع بمكانة حقيقية. وبقينا لمدّة طويلة بعد مشاهدة ذلك الفيلم نمضي وقتاً ممتعاً بارتداء الملابس والتحدّث مثله. "أهكذا تتمّ العناية بالمعدّات العسكرية؟" لكنّ التأثير أفسده غياب القفّازات البيضاء، وبالتالي كان الحصول على زوج منها هو حلمنا. كان الزيّ والنظّارة، إضافة إلى المسدّس المعلّق على حزامه تتجاوز أمنياتنا. كان جميع الصبيان وبعض الفتيات في صفّنا يعشقون خِيْ دجِيوُو، ليس بسبب الطريقة الساحرة التي اختار أن يترك المدرسة بها فحسب، بل لأنّه بعد وقت قصير من رحيله قدّم عرضاً رفيع الذوق للمدرسة برمّتها، طلاّباً ومعلّمين.

كنّا في الأوّل من يونيو، الذي يصادف فيه عيد الطفل، فاجتمعنا كلّنا في الملعب لحضور احتفال رفع العلم. مع أنّ مدرستنا كانت تقع في منطقة نائية، إلاّ أنّها لم تكن بعيدة جدّاً عن المزرعة العامّة التي كانت تضمّ مجموعة من الأشخاص المهرة المسمَّون يمينيين. كان بعضهم يتمتّع بخبرة واسعة في الرياضة والترفيه، فأتوا كأساتذة مناوبين. بفضل تدريبهم، نالت لو وينلي المركز الأوّل في بطولة غاومي لكرة الطاولة، واحتلّ هُوْ

ديجون المركز الأوّل في بطولة للقفز بالزانة في شانغواي. كما ساعدونا على تشكيل فرقة عسكرية لائقة. كنّا نملك طبلاً كبيراً، وعشرة طبول جانبية، وجرسين قرصيَين (غونغ)، وعشرة أبواق، وعشرة ترومبونات، بالإضافة إلى بوقين لامعَين ملتفَّين على نفسهما، وفُتحتهما موجّهة إلى الأعلى. في الواقع، لم يكن أهل المنطقة غرباء عن الصنوج والطبول: قرع طبل، ورنّة جرس قرصي، وضربة صنج:
. كانت أصواتاً محلّية رتيبة ومملّة. لكن في المرّة الأولى التي عرضنا فيها ما يمكننا القيام به في الملعب - أسلوبنا، ذوقنا، جاذبيّتنا، ناهيك عن الإيقاعات والألحان الحماسية العالية - فتحنا فعلاً أعين القرويين وجعلنا طبلات آذانهم تهتزّ. هل سبق لأحد منهم أن رأى حارس شرف؟ هل سمعوا يوماً موسيقى بهذا الشكل؟

زوّدت المدرسة أعضاء الفرقة بالأزياء الرسمية: سراويل قصيرة زرقاء وقمصان بيضاء للأولاد، وقمصان بيضاء وتنانير زرقاء للفتيات، فضلاً عن أحذية مطّاطية بيضاء وجوارب عالية حتّى الركبة لكلّ عضو في الفرقة. وتمّ طلاء الخدود باللون الأحمر، وتحديد الحاجبين بأقلام الفحم. رُبطت ضفائر الفتيات إلى الأعلى بالأشرطة الحمراء، ووضع الصبية ربطات عنق باللون نفسه. كان المشهد جميلاً، لا سيّما وأنّهم ارتدوا قفّازات بيضاء! لم تأتِ تلك الآلات والملابس بثمن بخس، وما كنّا لنتمكّن من شرائها حتّى لو قمنا ببيع مكاتب المدرسة، وكراسيها، ومقاعدها، والجرس الحديدي. لكن بالنسبة إلى مزرعة نهر جياو العامّة، لم يكن ذلك يساوي سوى ريشة واحدة على جسم دجاجة (القول إنّه يساوي شعرة واحدة على جسم تسع ثيران هو قول مبالغ فيه). ظهرت تلك المزرعة في كثير من قصصي ورواياتي، شأنها شأن اليمينيين الذين بدوا لي دائماً محبّين للمتعة، مدمنين على الملذّات الجسدية. إنّهم في الواقع أبطال روايتي التي تحمل عنوان ، وأدعو كلّ من يهتمّ بهم لقراءتها. لكنّ تلك الرواية خيالية، ومليئة بالأحداث المختلَقة، في حين أنّ هذه الرواية هي أساساً عبارة عن مذكّرات. وإن لم يكن كلّ ما أرويه دقيقاً من الناحية التاريخية، فذلك بسبب وجود ثغرات في ذاكرتي بعد كلّ هذه السنوات.

مزرعة نهر جياو العامّة، التي تنتمي إلى كلّ الشعب، كانت في الأساس جزءاً من فيلق شينجيانغ للإنتاج والبناء. وكان أعضاؤها بمعظمهم عسكريين متقاعدين. في وقت لاحق، رُفع عددهم عبر إضافة "شباب متعلّمين" من تشينغداو. في أوائل ستينيات القرن المنصرم، عندما كانت قريتنا المتخلّفة ما زالت تستخدم العربات التي تجرّها الثيران والمحاريث الخشبية، كانت مزرعة نهر جياو العامّة تملك حصّادة حمراء سوفياتية الصنع. عندما توغّلت تلك الآلة للمرّة الأولى في حقول القمح الشاسعة في المزرعة، كان تأثيرها علينا يوازي ذاك الذي شعر به أجدادنا في عام 1904، عندما رأوا أوّل قطار على خطّ تشينغداو-جينان، الذي راحت قاطرته الألمانية تُصدر أزيزاً وهي تعبر قريتنا وترسل الدخان الأسود في الهواء. بالنسبة إلى مؤسّسة ضخمة كتلك، كان تجهيز فرقة عسكرية لمدرسة ابتدائية مسألة بسيطة، مثل إعطاء الشخصيّة البطولية في سلالة هان، تشانغ فاي، طبقاً من براعم الفاصولياء. (إن كنت تقرأ هذا، أرجو أن تغفر لي إطنابـي. فرأسي يعجّ بهذه الذكريات المتنوّعة، التي لا أقصد كتابتها، بل هي تتدفّق من تلقاء نفسها).

لماذا يا ترى كانت مزرعة نهر جياو العامّة راغبة في تجهيز فرقة عسكرية في مدرسة ابتدائية ريفية؟ الجواب بسيط: كثير من الطلاّب كانوا أبناء وبنات أعضاء نافذين في المزرعة. ولماذا يرسلون اليمينيين كأساتذة مناوبين؟ للسبب نفسه. كان أستاذنا المحلّي، تشانغ، كما رأينا، خرّيج كلّية للمعلّمين، في حين أنّ ليو ذي الفم الكبير لم يتمكّن من تجاوز المرحلة الابتدائية العليا. بالمقابل، فإنّ اليمينيين الذين تمّ إرسالهم من قِبل المزرعة كانوا من المثقّفين المتعلّمين. لا شكّ أنّك بتّ تدرك الآن أنّ الجغرافيا جعلت مدرستنا الابتدائية من خيرة مدارس شبه جزيرة شاندونغ. فقد تمّ طردي من المدرسة حين كنت في الصفّ الخامس، ومع ذلك، بعدما التحقت بالجيش وتمّ نشري، كان مستواي التعليمي أفضل من الرفاق الذين ارتادوا المدرسة الثانوية في أماكن أخرى. ولو تمكّنت من متابعة تعليمي حتّى التخرّج، ربّما كنت سأُقبل في جامعة بكين أو جامعة تشينغهوا في عام 1977، وهو العام الذي أُعيدت فيه امتحانات القبول الجامعي.

بينما كنّا نلعب "الشرق أحمر"، ونشاهد علم النجوم الخمس يصعد ببطء على السارية،

ظَهَر خِيْ دجِيوُو في المكان الأكثر بروزاً في الملعب، يرتدي زيّاً عسكرياً قديم الطراز وباهت اللون، وقلنسوة عسكرية عريضة الحوافّ جديدة تقريباً، فضلاً عن قفّازات بيضاء ونظّارة شمسية، ويحمل سوطاً محلّي الصنع. لماذا كنّا نلعب "الشرق أحمر" أثناء احتفال رفع العلم عوضاً عن غناء النشيد الوطني؟ لأنّ الرجلين اللذين ألّفا النشيد الوطني، ألحاناً وكلمات، شكّلا هدفاً للحملات السياسية. تساءلنا كيف وضع خِيْ دجِيوُو يديه على ذلك الزيّ؟ في ذلك الوقت، لم نكن نملك أيّ فكرة. لكن بعد سنوات، عندما كنّا معاً في تشينغداو، سألته. فضحك وأجاب، شبه ممازح: "من والد لو وينلي". الآن، ومع أنّه من المبالغ فيه القول إنّه بلغ مستوى جاسوس جَسور في فيلم سينمائي، إلاّ أنّ مرآه سلب عقولنا. مشى بخطى واسعة ومليئة بالتصميم، مرفوع الرأس وشامخ الصدر، وقطع المسافة الفاصلة بيننا نحن الطلاّب وبين قيادة المدرسة، من دون أثر للخوف في عينيه. أشار بسوطه إلينا وقال بنبرة متكلّفة: "أهكذا تتمّ العناية بالمعدّات العسكرية؟"

وقف مدراء المدرسة فاغري الفاه، وحملقوا به وهو يتبختر أمامهم، ثمّ يستدير ويتبختر عائداً قبل أن يمشي في طريق وهو يصفر. تبعته أنظارنا وهو يتوجّه نحو ضفّة النهر، يصعد منحدراً ويهبط آخر، إلى أن اختفى أخيراً في النهر ليقوم، كما افترضنا، بخلع زيّه والاستحمام فيه، أو ربّما التحديق ببساطة إلى انعكاس صورته. بعد ذلك، لم يتمكّن أيّ نشاط مدرسي منظّم من إثارة اهتمامنا على الإطلاق. لا شيء، لا التلاوات الشعرية، ولا العروض الهزلية تمكّنت من إبعاد تفكيرنا عن ضفّة النهر. تمتم ليو ذو الفم الكبير وهو على وشك الانفجار: "سيتلقّى العقاب الذي يستحقّه!"

إلاّ أنّهم لم يفعلوا أبداً. فقد كان والد خِيْ دجِيوُو عامل زراعة متعاقداً على مدى عقود، وكانت أمّه عضواً مخضرماً في الحزب، امرأة تكسو بشرتها آثار الجدري، ذات أقدام كبيرة ومزاج متقلّب غالباً ما يظهر عندما تقف على حجر الرحى أمام منـزلهم وتشتم خطّاً أزرق اللون لسبب لم نتمكّن من فهمه. كانت تقف هناك واضعة إحدى يديها على خصرها، ورافعة الأخرى في الهواء، مثل إبريق شاي قديم الطراز. كان دجِيوُو يملك خمسة إخوة - ثلاثة صبيان وفتاتين - وجميعهم يتقاسمون منـزلاً متداعياً مؤلّفاً من ثلاث غرف. لم يكن لديهم حتّى حُصر قشّ على أسرّة الطوب التي ينامون عليها. حتّى الرئيس ماو ما كان ليعرف كيف يتعامل مع شخص من هذه الخلفيّة، فما بالك بليو ذي الفم الكبير.

في خريف عام 1973، وجدت عملاً مؤقّتاً في مصنع للقطن كان عمّي يعمل فيه محاسباً. ربّما كان مؤقّتاً، ولكن في كلّ شهر، بعد تحويل أربعة وعشرين ينّاً إلى فريق الإنتاج، كنت آخذ معي خمسة عشر. في ذلك الحين، كان اللحم يباع بسبعين سنتاً للكاتي[1] تقريباً، والبيضة بستّين سنتاً، الأمر الذي يجعل الخمسة عشر ينّاً مبلغاً كبيراً. فبدأت أرتدي ملابس أنيقة، وأطيل شعري، وصرت أملك عدّة أزواج من القفّازات البيضاء. كلّ تلك "الثروة" أدارت رأسي. ففي أحد الأيّام، بعدما أخذت إجازة من العمل، أتى خِيْ دجِيوُو لرؤيتي. كان يرتدي حذاءً بالياً مع ثقوب عند الأصابع، ويضع بطانية مطويّة فوق كتفيه. كان شعره مشعّثاً، ولم يحلق ذقنه منذ وقت طويل، وبدت في جبينه ثلاثة تجاعيد عميقة. قال لي: "أقرضني عشرة ينّات، أنا ذاهب شمالاً".

"وماذا عن أسرتك، ماذا سيفعلون بعد رحيلك؟"

أجاب: "لن يتركهم الحزب الشيوعي يتضوّرون جوعاً".

"ماذا ستفعل هناك؟"

"لا أعرف، لكن هذا أفضل من التسكّع هنا حتّى الموت، ألا تظنّ ذلك؟ انظر إليّ، أنا على وشك بلوغ الثلاثين ولا أملك حتّى زوجة. عليّ الخروج من هنا. فالانتقال يقتل الأشجار، إلاّ أنّه يبقي الناس على قيد الحياة".

في الحقيقة، لم أكن راغباً في إقراضه الينّات العشرة، التي كانت تشكّل مبلغاً ضخماً في تلك الأيّام.

قال: "ما رأيك بذلك؟ إن وُفّقتُ لن أعيد لك المال، أمّا إن لم أوفّق، فسأعيد إليك نقودك حتّى لو اضطررت إلى بيع دمي من أجل ذلك". لم أتمكّن من فهم هذا المنطق إطلاقاً، وحاولت التهرّب قليلاً قبل أن أقرضه المال أخيراً.

لكن لنرجع إلى عصر ذلك اليوم الذي كنت متّكئاً فيه على جدار باحة المدرسة، أشاهد مباراة كرة الطاولة بين ليو ذي الفم الكبير ولو وينلي. كان ليو لاعباً غير بارع مهووساً بالرياضة، ويحبّ اللعب ضدّ فتيات الفريق. لم تكن أيّ منهنّ غير جذّابة، لكنّ لو وينلي كانت أجملهنّ، وبالتالي منافِسته المفضّلة. في كلّ مرّة يضرب فيها الكرة، كان يفتح فمه الكبير عن غير قصد. هذا الأمر بحدّ ذاته ليس جديراً بالذكر، إلاّ أنّ صوت كان يتصاعد من حلقه، وكأنّ بضع ضفادع تحاول الخروج. كان أسلوبه في اللعب، صوتاً وصورة، يجعلنا نشعر تقريباً بالرغبة في التقيّؤ. لم تكن لو وينلي تحبّ اللعب مع الأستاذ ليو، كنت أعرف ذلك، لكنّه أحد مدراء المدرسة، ولم يكن لديها الخيار. فنظرة واحدة إلى وجهها ولعبها المتكاسل عندما تكون على الطرف الآخر من الطاولة مع الأستاذ ليو كانت كافية لمعرفة حقيقة شعورها؛ الاشمئزاز والبغض.

في الواقع، الهدف من كلّ هذا الكلام هو وصف المشهد الدرامي التالي: فتح الأستاذ ليو فمه، وضرب كرة ردّتها لو وينلي عرَضاً. إلاّ أنّ كرة الطاولة البرّاقة توجّهت مباشرة إلى فمه، وكأنّها تملك عينين.

ذهلنا جميعاً، ولكن للحظة وحسب. بعد ذلك، انفجرنا في الضحك. أحد الأساتذة الذي يدعى مَا، وكان يملك أساساً وجهاً أحمر، أصبح وجهه بلون عرف الديك. راحت لو وينلي، التي جمدت في مكانها في البداية، تقهقه بصوت عالٍ. كنت الوحيد الذي لم يضحك، بل اكتفيت بالوقوف هناك مدهوشاً بما حدث، وتذكّرت حكاية معروفة في قريتنا كان قد رواها لنا الحكواتي الجدّ وانغ غوي. في أحد الأيّام، عندما كان جيانغ زيا المُعدَم يبيع دقيق القمح، هبّت عاصفة قوية وطيّرت الدقيق من بين يديه. فحاول بيع الفحم، لكنّ الشتاء أتى دافئاً على نحو غير مألوف. أخيراً، عندما نظر إلى السماء وتنهّد، أسقط أحد الطيور قذارته في فمه. بعد عشرين عاماً، في خريف عام 1999، كنت في مترو الأنفاق متوجّهاً إلى عملي في صحيفة ، عندما لفت انتباهي عنوان في إحدى الصحف التي يبيعها بائع متجوّل: "اقرأ كلّ شيء عن الحدث - قذيفة مدفعية سوفياتية تستقرّ في فوهة مدفعية ألمانية خلال الحرب العالمية الثانية!" فعاد تفكيري فوراً إلى اليوم الذي سدّدت فيه لو وينلي كرة الطاولة في فم أستاذ ليو. أدرك الجميع بعد ذلك أنّه لا يجدر بهم الضحك، وتوقّفوا فجأة. الآن، ستفكّر بالطبع أنّ ليو بصق الكرة وقال شيئاً مضحكاً - إذ كان يتمتّع بحسّ جيّد بالمرح - بينما قامت لو وينلي، التي كانت تشعر بإرباك واضح، بالاعتذار من أستاذها. لكنّك مخطئ إن ظننت ذلك. فعوضاً عن بصق الكرة، مدّد ليو عنقه، وجحظت عيناه وهو يحاول ابتلاع ذلك الشيء؛ كلّنا شاهدنا ذلك. ثمّ راح يلوّح بذراعيه مصدراً صوتاً غريباً من حلقه، وبدا مثل دجاجة ابتلعت حشرة سامّة. أصبنا جميعاً بالدهشة التامّة، وشعرنا بعجز بالغ. وحده الأستاذ تشانغ اندفع وبدأ يضرب ليو على ظهره. ثمّ أسرع أستاذ يدعى يُو، وأحاط عنق ليو بيديه. دفعهما ليو هما الاثنين وهو يلوّح بذراعيه. إلاّ أنّ الأستاذ وانغ، أحد اليمينيين وخرّيج كلّية الطبّ، عرف ما يجب فعله. فركض، وأبعد تشانغ ويُو من طريقه، ثمّ أحاط خصر ليو بذراعيه - الطويلتين مثل ذراعي قرد - ودفع يديه في بطنه. فطارت الكرة من فم ليو، وارتطمت بالطاولة، لتقفز عليها مرّة أو اثنتين قبل أن تسقط على الأرض، وتقف من دون أن تتدحرج إنشاً واحداً. أفلت وانغ الأستاذ ليو، الذي أطلق صرخة اختناق وانهار على الأرض وكأنّه كومة وحل. رمت لو وينلي مضربها على الطاولة، ثمّ دفنت وجهها بين يديها وركضت وهي تبكي. راح وانغ يدلّك الأستاذ ليو، الذي ظلّ ممدّداً على الأرض إلى أن تلقّى المساعدة على النهوض. حالما وقف على قدميه، نظر حوله وسأل بصوت أجشّ:

"أين لو وينلي؟ أين هي؟ لقد أوشكت تلك الشقيّة الصغيرة على قتلي!"

2

بعدما رأيت خِيْ دِجيوُو راحلاً، بدأت أشعر بالقلق. فالعمل المؤقّت في مصنع القطن كان أفضل من العمل في الزراعة في القرية. لكن مع ذلك ما زلت أعتبر فلاّحاً، وإن لم يتغيّر هذا الوضع، سأبقى عالقاً في أسفل الهرم الاجتماعي. في ذلك الوقت، تمّت ترقية اثني عشر شابّاً تقريباً من عامل مؤقّت إلى عامل منتظم، وراحوا يتبخترون بفخر بأحذيتهم الجلدية والساعات الجديدة اللامعة في أيديهم. بما أنّني قرأت أعمالاً كلاسيكية مثل ، ، وكنت أحفظ كثيراً من قصائد تانغ وسونغ، وأملك خطّاً جميلاً بالنسبة إلى سنّي، كان أحد العمّال المتقاعدين في المصنع يطلب منّي بانتظام كتابة رسائل لابنه الجندي في هانغدجو. فكنت أخلط النثر الكلاسيكي والحديث، وأستخدم جميع أنواع العبارات المنمّقة التي ما زالت حتّى الآن تبعث الاحمرار في خدّي وأذنيّ عندما أفكّر فيها، إلاّ أنّ الرجل العجوز كان يثني على مواهبـي أمام كلّ من يرغب في الإصغاء إليه، ويسمّيني "المفكّر الصغير". في الواقع، كنت أعتبر نفسي مميّزاً جدّاً، وأحلم في أن أعرض يوماً ما مواهبـي على العالم بأسره. كنت أعرف أنّ عملي في المصنع لن يدوم إلى الأبد. وأشعر أنّ العودة إلى القرية هي أشبه بوضع فرس سباق في حظيرة أبقار. في ذلك الوقت، لم يكن دخول الجامعة مشروطاً بالنجاح في امتحانات معيّنة، بل بتوصيات من الفلاّحين الفقراء والمتوسّطين. ومع أنّني استوفيت كلّ متطلّبات دخول الجامعة، إلاّ أنّني كنت أملك في الواقع فرصتين: واحدة ضئيلة والأخرى معدومة. فبما أنّ الفرص لم تكن كافية حتّى لأبناء وبنات كبار موظّفي البلدية، لم يكن ثمّة احتمال أن يتمّ اختيار طالب صفّ خامس مثلي، قبيح، وكبير الفم، وابن فلاّح متوسّط. لذلك، بعد التفكير بالأمر من جميع الزوايا، بدا لي الالتحاق بالجيش الطريقة الوحيدة للخروج من القرية وتغيير حياتي.

كان الالتحاق بجيش التحرير الشعبـي صعباً، لكن ليس بصعوبة دخول الجامعة. هكذا، وبدءاً من عام 1973، كنت أرسل طلباً وأخوض امتحاناً بدنياً في البلدية كلّ عام، وفي كلّ عام كان يُرفض طلبـي. لكن في شهر فبراير من عام 1976، وبمساعدة بعض الأشخاص من ذوي النفوذ، كوفئت على مثابرتي، وتلقّيت إشعار التجنيد. بعد ذلك بوقت قصير، وفي يوم مثلج وبارد، مشيت حوالى خمسة عشر ميلاً إلى بلدية المقاطعة. هناك، ارتديت زيّاً عسكرياً، وصعدت إلى الجزء الخلفي من إحدى الشاحنات العسكرية للذهاب إلى مقاطعة هوانغ. وهناك انتقلت إلى ثكنات "مجمّع أسرة دينغ" الشهيرة، وبدأت التدريب الأساسي.

(*1999*

.

).

بعدما تلقّيت التدريب الأساسي، تمّ إرسالي مع ثلاثة مجنّدين آخرين إلى ما يسمّى وحدة الاستخبارات في وزارة الدفاع. هنّأني أبناء قريتي على حظّي السعيد، لأنّني كُلّفت بالعمل في هذه الوحدة رفيعة المستوى، لكنّها شكّلت في الواقع خيبة أمل كبيرة، إذ كانت مجرّد محطّة رصد إذاعية يتمّ إلغاؤها على مراحل.

كانت القيادة التي نخضع إلى إمرتها موجودة في بكين، على مسافة بعيدة منّا. لذلك أُسندت مهمّة الإشراف إلى اللواء 34 لقيادة حامية بنغلاي المتمركزة في مقاطعة هوانغ، وكُلّفت بمسؤوليّة الإشراف على أنشطتنا. الإشراف! بذلوا ما في وسعهم، لكنّهم لم يتمكّنوا أبداً من الإشراف علينا فعليّاً، ولم يجرؤوا على ذلك. كان رمز وحدتنا "263"، وأيّ ذكر للرقم "263" يسبّب إحباطاً كبيراً لقائد اللواء 34 بحيث يرتفع ضغط دمه، فينظر مفوّضه السياسي إلى الأعلى بسأم بكلّ بساطة. هذا يعطيك فكرة في أيّ نوع من الوحدات القذرة تمّ تعييني.

كانت مهامي تقوم إمّا على فلاحة الأرض، أو على الحراسة. والشيء الوحيد الذي كان يشعرني بالسرور هو شاحنة الوحدة، التي كانت تشبه تماماً تلك التي كان يقودها والد لو وينلي. الطراز نفسه، واللون نفسه، والعمر نفسه. كان سائقنا رجلاً قصير القامة، وأشيب الشعر، ذا أسنان اصطناعية، وكان ضابطاً في عقده الرابع يدعى تشانغ. اعتدنا على

تسميته الفنّي تشانغ. زوجته الثانية - فهو مطلّق - تعيش وتعمل في مدينة جينان مع ابنتها، بينما عاش ابنه من زوجته الأولى معه في المعسكر، وكانا كلاهما من هواة كرة السلّة. كانا يمضيان الوقت في تسديد الكرة في الحلقات، ومَن يخطئ العدد الأكبر من التسديدات كان يزحف من وسط الملعب وصولاً إلى تحت السلّة، وهو يدفع الكرة برأسه. بعد وقت قصير من وصولي، كان الفنّي تشانغ هو دائماً من يجعل ابنه يقوم بالزحف. لكن بعد عام، انعكس الوضع. فأصبح الابن، الذي يملك اسماً غريباً - تشينبينغ، أو الولد الجندي - يضرب مؤخّرة أبيه بعصا وهو راكع على الأرض، ومع كلّ ضربة يصيح قائلاً: "أسرَع!" وكان تعليقه المفضّل: "أنت مثل برعم فاصولياء في مرحاض يتحرك مثل يرقة طويلة الذنب!"

لم تكن لديّ طموحات كبرى في ذلك الحين، لأنّ وحدتي لم تضمّ سوى عشرة رجال تقريباً، الأمر الذي حدّ من فرص الترقية. لذلك، عندما سمعت أحد المحاربين القدامى يقول إنّ الفنّي تشانغ سوف يعلّم أحد المجنّدين كيفيّة قيادة شاحنة، أملت أن أكون أنا ذلك المجنّد. ففي القرية، كنت أكتفي بالوقوف مدهوشاً أشاهد والد لو وينلي وهو يُسرع بشاحنته الغاز 51، مثيراً خلفه سحباً من الغبار. اقتربتُ مرّة من الشاحنة، وكاد ذلك أن يكلّفني حياتي. إذ كان والد وينلي قد ركن شاحنته في الشارع أمام تعاونية العرض والتسويق لشراء السجائر. فاغتنمت الفرصة لرؤيتها عن كثب. قفزت على المصدّ، وتمسّكت بالباب الخلفي. عندما خرج والد وينلي حاملاً سجائره، صعد إلى قمرة الشاحنة، وانطلق مسرعاً. فاختنقت بغبار الطريق، وأفلتُّ الباب الخلفي، ثمّ سقطت على الأرض، وتكوّمت مثل تلّة من التراب. لم أنهض على الفور، لكن عندما فعلت، كان أنفي متورّماً وشفتاي داميتين. شعرت بشيء من الدوار، ولم أفهم تماماً كيف حدث ذلك. في ما بعد، عرفت أنّه كان قصوراً ذاتيّاً.

لكنّني الآن أستقلّ شاحنة الغاز 51 كلّ أسبوع، وأتنقّل لمسافة أربعة أو خمسة أميال إلى المزرعة. أُعطيت وحدتي أربعين آكراً لزراعتها. كان تسعة منّا ضبّاطاً يتناوبون على الآلة الصدئة، بحيث يبقى سبعة حرّاس للعمل في الحقل. لكنّ اثنين من الرجال، وكلاهما من مدينة تيانجين، كانا مرفّهَين، ولم يقوما بأيّ عمل. كم تبقّى بالتالي للقيام بالعمل الفعلي؟ أنا وأربعة آخرون.

كان الفنّي تشانغ يقود الشاحنة بسرعة على الطريق الساحلي المكسوّ بالحصى إلى المزرعة، ويركب بجانبه إمّا ابنه أو أحد الضبّاط. أمّا نحن، فكنّا نصعد إلى الجزء الخلفي، ونتمسّك بجانبَي الشاحنة، بعد أن نقحم قبّعاتنا بقوّة في جيوب سراويلنا، سعداء بالهواء الذي يبعثر شعرنا. وحين أفكّر بمدى رغبتي في معرفة كم يمكن أن تبلغ سرعة تلك الشاحنة، لا أستطيع سوى تهنئة نفسي على الالتحاق بالجيش.

كان تشانغ يقود كالمجنون. فقد كانت السيّارات والشاحنات نادرة للغاية في ذلك الحين، وهو زمن لم تكن تستطيع فيه البلاد أن تتباهى باجتياز ميل واحد بسرعة عالية على الطريق السريع. قيل لنا إنّ اليابانيين قاموا بشقّ طريق الحصى هذا عندما اجتاحوا الصين، وإنّه يُعتبر واحداً من أفضل الطرق في البلاد؛ كان كلّ اتّجاه يضمّ ممرّاً واحداً، يتّسع بالكاد لسيّارتين. سرعان ما كان راكبو الدرّاجات الذين نمرّ بهم يختفون في سحابة الغبار التي نخلّفها، وغالباً ما يتبعنا وابل من الشتائم.

كان الأهالي أكثر عزماً من أبناء منطقتي. ذلك أنّ أحداً لم يكن يسبّب المشاكل لوالد لو وينلي إن دهس كلباً أو دجاجة في القرية. لكن بعدما دهس الفنّي تشانغ دجاجة في أحد الأيّام، أتت مالكة الطائر ووقفت عند باب قائد المعسكر، ثمّ راحت تطرق على الإطار بعصاها مسبّبة له إزعاجاً كبيراً. عرفت لاحقاً أنّها كانت نموذج المرأة الميليشيوية ذات المكانة الكبيرة في فيلم   . وكان ولداها من كبار الضبّاط في جيش التحرير الشعبـي.

صاحت قائلة: "تسمّون أنفسكم جيش الطريق الثامن! حتّى اليابانيين لم يتصرّفوا على هذا النحو عندما أتوا إلى القرية!" هزّ قادة معسكرنا رؤوسهم موافقين، ثمّ انحنوا وأعطوها عشرة ينّات. فتمتمت غير مصدّقة: "عشرة ينّات؟ كانت تلك الدجاجة تبيض بيضة كلّ يوم، بصفارين، في الواقع. وهذا يعني 365 بيضة في السنة، بصفارين. كلّ خمسة منها تساوي كاتي واحداً، بثمانية وخمسين لكلّ كاتي. فكم يساوي ذلك؟ احسبوها بأنفسكم".

ماذا يمكن للقائد أن يقول؟ أعطاها عشرين يناً، على أمل أن يكون هذا كافياً. لكن لا، بالكاد غادرت الثكنة حتّى عادت وطلبت رؤية سائق الشاحنة التي دهست دجاجتها. قالت عبر شفتيها الذابلتين: "أريد رؤية أيّ نوع من الرجال يقود شاحنة قديمة متهالكة، مثل أرنب هارب من رصاصة صيّاد". لم يستطع القائد رفض طلبها، فأرسلني لجلب الفنّي تشانغ. وقف باهتمام وألقى عليها تحيّة مهذّبة.

قال: "يا حضرة الأمّ العجوز الثورية، أنا أعترف بخطئي!"

"هذه بداية جيّدة، لكن عليك أن تتغيّر. من الآن فصاعداً، لا تتخطّ خمسة عشر ميلاً في الساعة عندما تقود في القرية. وإن لم تفعل، سأقوم بزرع ألغام أرضيّة في الطريق وأمزّقك إرباً، أيّها الوغد!"

بعد مدّة، سمعت أنّ الفنّي الذكيّ تشانغ قام بزيارة المرأة العجوز حاملاً لها علبة من الحلويات، وطلب منها أن تكون بمقام أمّه.

في عام 1979، أي قبل شهرين من نقلي إلى مدينة باودينغ في مقاطعة خيبـي، نُقل تشانغ إلى وحدة في قيادة منطقة جينان، بحيث اجتمع مجدّداً بزوجته كمساعد في الصفّ الخلفي، بعد انفصال دام لأعوام. وأصبح ابنه تشينبينغ جندياً، مع أنّه لم يكن قد تجاوز الخامسة عشرة من عمره، وتمّ تعيينه في فرقة ثقافية درس فيها أسلوب شاندونغ الإيقاعي لرواية القصص على يد الفنّان الشهير غاو يانجون. وقيل إنّ ابن المرأة العجوز البكر كان مسؤولاً كبيراً في المنطقة العسكرية، وإنّ الفضل يعود إليها في نقل تشانغ وترقيته.

كانت أوجه القصور العديدة لدى تشانغ كجندي واضحة للجميع. فقد كان يرتدي قبّعته كيفما اتّفق، ولا يزرّر سترته، ويبدو أشبه بقاطع طريق نموذجي في فيلم سينمائي بمشيته المرحة. كان مولعاً بالشراب، لكنّ القليل منه يسبّب له الدوار، فيبدأ عند ذلك بدندنة الأغنية البذيئة "الشقيقة الثانية تفتقد زوجها". كانت تسليته المفضّلة هي مغازلة فتيات المدن اللواتي يتمّ إرسالهنّ إلى الريف، كما كان يأخذ بصحبته بعضاً من فتيات القرية الأكبر سنّاً كلّما قاد شاحنتنا إلى البلدة. وقد أقام علاقة وثيقة مع إحداهنّ، وهي فتاة كنّا نسمّيها الأخت سيّئة الحظّ. عندما أنجبت خنـزيرة قام والدها بتربيتها ثمانية خنازير صغيرة، وأراد بيعها، حملها تشانغ في شاحنته، مع الخنـزيرة، إلى سوق الخنازير في البلدة. على الرغم من هذه الصفات غير العسكرية، كان يبذل جهده للحفاظ على شاحنته بأفضل حال، ويكرّس أيّام السبت من أجل صيانتها وإصلاحها. كان يعرف تلك الشاحنة مثل كفّ يده، ويستطيع أن يحدّد على الفور مصدر أيّ صوت غير معتاد. ولو أنّ الفنّي تشانغ لم يولِ ذلك القدر من العناية لشاحنة الغاز 51 التي مزّقها رصاص الحرب الكورية، لكانت الآن تصدأ على كومة من الخردة.

لسبب ما، بدا أنّ تشانغ أحبّني. فقد كان دائماً يطلب منّي أنا المساعدة على غسل الشاحنة أو إصلاحها أيّام السبت، وافترض زملائي المجنّدون أنّه يدرّبني لكي أحتلّ مكانه يوماً ما. تصوّرت أنّهم كانوا محقّين على الأرجح. بفضله، تعلّمت الكثير عن عمل المحرّك، بما في ذلك كيف يمكن للشاحنة أن تسير بهذه السرعة. وفوجئ حين أخبرته عن الغاز 51 التي كان والد لو وينلي يقودها في مزرعة نهر جياو. قال: "لم أكن أعتقد أنّه ثمّة أكثر من واحدة من هذه الشاحنات القديمة قيد الاستخدام في أيّ مكان في البلاد". ولم يكتفِ بذلك، بل أضاف: "يوماً ما، سأقود الشاحنة إلى تلك المزرعة لتتعرّف شاحنتنا الغاز 51 على بعضهما. فهذه الآلات تملك أرواحاً في أعينها، مثل الأشجار التي تلد أرواحاً. وكلّ شاحنة مزّقها الرصاص، وأريق فيها دم جنود، وتستطيع السير على أربع عجلات يجب أن تكون قادرة على فعل الشيء نفسه". تساءلت، كيف يمكن أن يكون لقاء شاحنتين ذات أرواح؟

قال تشانغ إنّه تاسع رجل يقود هذه الشاحنة. فقد مات الأوّل ميتة أبطال. إذ انحنى على عجلة القيادة، بعدما أصيب بجرح قاتل برصاصة العدوّ أو بشظيّة حطّمت الزجاج الأمامي. وقد تمكّن بطريقة ما من قيادة الشاحنة إلى خارج أرض المعركة المحتدمة حوله، قبل أن يسلم الروح. ذكر تشانغ أسماء وتواريخ ميلاد أسلافه الثمانية، واحداً تلو الآخر، بالطريقة التي يتذكّر بها الناس أنساب أجدادهم. كانت الشاحنة من إنتاج مصنع غوركي في الاتّحاد السوفياتي عام 1951، ما يعني أنّها تكبرني بأربعة أعوام. ولّدت لديّ رواية

تشانغ لتاريخ الشاحنة المجيد إحساساً بالاحترام البالغ لها، وهذا ما أعادني إلى تلك التي كان يقودها والد لو وينلي. بالنسبة إليّ، كانتا شقيقتين توأم انفصلتا عند الولادة. هل تتساءل "لماذا ليستا شقيقين توأماً أو ولداً وبنتاً"؟ لا أعرف، لكن هكذا كنت أراهما في ذلك الحين، وظلّت هذه الفكرة عالقة في ذهني. يكفي التفكير أنّني عُيّنت في قيادة حامية بينغلاي في منطقة قيادة جينان كمجنّد جديد. وبمحض الصدفة، تمّ نقلي إلى هذه الوحدة الصغيرة الملحقة بمقرّ الأركان العامّة، والتي تملك شاحنة غاز 51. ربّما كان احتمال حدوث هذا الأمر معي أكبر من احتمال طيران كرة الطاولة من يد لو وينلي إلى فم الأستاذ، ولكن ليس بكثير. بعدما أصغيت إلى تشانغ وهو يروي تاريخ شاحنته المجيد، أدركت أنّ مهمّتي كانت تقوم على المساعدة في جمع تلك الأختين التوأم اللتين انفصلتا منذ زمن بعيد.

في كانون الثاني من عام 1978، أمر قائد المعسكر الجديد الفنّي تشانغ بإيصال أربعين سلّة من التفّاح ومائة باقة من البصل الأخضر المكتنـز إلى القيادة التي نتبع لها، والواقعة في ضواحي بكين، على بُعد ألف ومائة كيلومتراً بالاتّجاه الذي تطير فيه الغربان. فاختارني لمرافقته كمساعد له، وما كنت لأطلب مهمّة أحبّ إلى قلبـي. انطلقنا في ساعة متأخّرة من الليل، وخطّطنا للوصول في أوائل المساء من اليوم التالي. لكنّ الشاحنة بدأت تُحدث المشاكل بعد وقت قصير من مرورنا في بلدة تدعى ويفانغ. ما دام تشانغ يقودها تحت سرعة الثلاثين، يكون كلّ شيء على ما يرام. لكن ما إن يتخطّى تلك السرعة، حتّى تبدأ الأصوات العالية والدخان بالخروج من العادِم. افترض تشانغ وجود مشكلة في أنبوب الوقود، لكن عندما زحف تحت الشاحنة مع مصباح يدوي، لم يجد أيّ خطب. فانطلقنا مجدّداً، وحدث الشيء نفسه. كنّا في تلك الساعة من السواد الحالك التي تسبق انبلاج الفجر، وكان الجوّ قارس البرودة، مع صقيع وبقع من الثلج على الأرض. بعدما فرش معطفاً بالياً على الأرض، زحف مجدّداً تحت الشاحنة وفحص كلّ ما استطاع رؤيته. مع ذلك، لم يجد شيئاً. عدنا إلى الشاحنة، وجلسنا ندخّن السجائر بكآبة. تمتم قائلاً: "غريب، كم هذا سخيف! أيّتها الشاحنة، يا صديقتي القديمة، ماذا حلّ بك؟ نحن معاً منذ أكثر من عقد من الزمن، ولم يفعل تشانغ العجوز شيئاً يضرّ بصداقتنا". عندما سمعته يتحدّث مع الشاحنة بهذا الشكل، شعرت بالذعر تقريباً، وخفت ممّا قد يحدث لاحقاً. فكّرت مجدّداً بالشاحنة التي يقودها لو وينلي. كنّا على بعد خمسين ميلاً من نهر جياو، ولم تكن مسافة بعيدة بالسيّارة أو الشاحنة، فتساءلت ما إذا كانت الشاحنتان متوتّرتين من اقتراب لقائهما. كان تشانغ يقول: "أيّتها الصديقة القديمة، عليك مساعدتي هنا، ساعديني على إيصال هذه الحمولة من التفّاح والبصل إلى بكين. وفي طريق عودتنا، سنذهب في رحلة قصيرة إلى مزرعة نهر جياو لكي تلتقي بشقيقتك". من الواضح أنّنا كنّا على نفس الموجة أنا والفنّي تشانغ.

مع شروق الشمس الحمراء، بدا جانب الطريق الأبيض - لم أستطع أن أتبيّن ما إذا كان صقيعاً أم قلويات - ونحن نتقدّم إلى المدينة الرئيسة في مقاطعة شوغوانغ بحثاً عن مكان لتناول الطعام. في ذلك الوقت، كانت "المدينة" تبدو أشبه بمدينة أشباح، إذ لم تكن تحتوي سوى على طريق واحد في الوسط، ومطعم واقع على جانب الطريق لا يفتح أبوابه قبل الساعة الثامنة، بحسب اللافتة المعلّقة على الباب الزجاجي. في الواقع، فتح أبوابه عند الساعة التاسعة، ولم يكن قد تبقّى لديه سوى كعك من اليوم السابق. عاملَنا النادل بلياقة وعرض علينا تسخين الكعك، ففي النهاية كنّا نرتدي الزيّ العسكري. قدّموا لنا أيضاً زجاجة من الماء الساخن وطبقاً من البقول المملّحة. كان شراء كعكة واحدة يحتاج إلى قسيمة أوقيتين من الحبوب، لكنّني لم أكن أملك سوى قسائم كبيرة صالحة في أيّ مكان في البلاد. كانت كبيرة جدّاً بالنسبة إلى النادل، الذي اضطرّ للذهاب والسؤال عمّا يجب فعله. فاستقرّ القرار على أن ندفع ثلاثين سنتاً عن كلّ قسيمة حبوب بقيمة كاتي واحد.

(2003 .

.

).

بعدما شبعت البطون، عدنا نـزحف على الطريق. فقد ظلّت شاحنتنا تعاندنا، مرسلة الأصوات العالية والدخان من العادم. هكذا استغرقت رحلتنا وقتاً أطول ممّا ينبغي، لكنّنا في نهاية المطاف وصلنا إلى مدينة بيندجو، في مقاطعة هويمين. ذهبنا مباشرة إلى محلّ لتصليح السيّارات، وطلبنا من ميكانيكيّ قديم إيجاد العطل. كان العجوز الأشيب يفتقر إلى إصبعين في يده اليسرى، إلاّ أنّ هذا الأمر لم يكن له تأثير كما يبدو على جودة عمله. أضاءت عيناه عندما رآنا ندخل. قال: "آه، يُدهشني أنّ هذه الشاحنة القديمة ما زالت تعمل".
كبادرة ودّية، قدّم الفتّي تشانغ سيجارة إلى الرجل، الذي كان ميكانيكيّاً في الحرب الكورية - الأمر الذي يجعل منه رفيقاً لأوّل سائق لشاحنتنا، ذاك الذي توفّي متّكئاً على عجلة القيادة. بحماسة واضحة، دار حول الشاحنة، ومرّر يده عليها مثل فارس التقى مجدّداً بفرس قديمة ظنّ أنّه أضاعها. صعد إلى القمرة وقادها على الطريق المخصّص لاختبار السيّارات بضع مرّات. قال بعدما ترجّل منها وتحقّق من بعض الأشياء: "لا شكّ أنّه أنبوب الوقود". لكنّه لم يستطع تحديد مصدر المشكلة، شأنه شأن تشانغ. قال أخيراً: "إنّها قديمة، وعليك تدبّر أمرك بها". عندما سألناه بكَم ندين له، لوّح بيده وصرفنا.

هكذا عدنا إلى الطريق، وعادت الشاحنة تُصدر الضجيج والدخان كلّما حاولنا أن نسرع. توقّف تشانغ على جانب الطريق، ثمّ أسند رأسه على عجلة القيادة، ولم يتحرّك لوقت طويل. قلت له: "لماذا لا نفصل أنبوب الوقود ونرى ماذا نجد؟ من الممكن أن يكون عمّال خدمة التصليح التابعة للحامية قد وضعوا شيئاً في أنبوب الوقود عندما أخذنا لهم الشاحنة قبل انطلاقنا".

"ماذا يمكن أن يضعوا فيها؟ قطعنا خمسين ميلاً في الساعة من مقاطعة هوانغ حتّى ويفانغ من دون أيّ متاعب". لكنّه ترجّل من الشاحنة وراقبني وأنا أفكّك أنبوب الوقود وصولاً إلى المرشح، ثمّ أخرج غطاءً خزفياً! قال غاضباً: "اللعنة! ما هذا؟" تبيّن أنّ ميكانيكيّ الحامية حاول أن يصنع معروفاً عبر إدخال مرشح خزفي. لكنّ ثقوبه كانت صغيرة جدّاً، ممّا أجبر الشاحنة على التقدّم بسرعة بطيئة. رمى تشانغ الغطاء على الأرض وسحقه بكعب حذائه، ثمّ تناول مفتاح براغي وأعاد وصل أنبوب الوقود. بعدما مسح يديه بخرقة، ارتدى قفّازاته من جديد، ثمّ قفز في الشاحنة، وضغط على دوّاسة البنـزين، فانطلقنا بسرعة ستّين ميلاً في الساعة. لم تَصدر أصوات ولا دخان، بل عاد كلّ شيء إلى طبيعته. راح يشتِم قائلاً: "لقد أوشك على خنق هذه الفرس الأصيلة". كان سعيداً إلى حدّ النشوة ونحن نسرع باتّجاه تسانغدجو، وكأنّنا راكبين على فرس سباق، لنصل مع غروب قرص الشمس الأحمر في الأفق، وكان الوقت متأخّراً للابتعاد أكثر.

عندما بحثنا عن غرفة في نـزل محلّي، قيل لنا إنّه ممتلئ. لكنّ المسؤولة، وكانت شابّة طيّبة القلب وممتلئة الجسم، رأت كم كنّا متعبَين، فقالت: "أيّها الرفيقين، إن كنتما لا تمانعان، يمكنني أن أجهّز لكما فراشَين على الأرض". بدا ذلك مناسباً لنا. ثمّ أحضرت لنا حوضاً من الماء الساخن لنغسل أرجلنا فيه، فتأثّرنا بلطفها.

كان تشانغ قد أصيب بالزكام بعدما تمدّد على الأرض وهو يعمل على الشاحنة، وبدأ يعاني من السعال، فخرجت لأشتري له دواءً للزكام. في طريق العودة، قمت بجولة حول شاحنتنا، التي ركنّاها إلى جانب الطريق، وقمنا بتغطية قمرة القيادة بغطاء من القنّب. فربّتُّ على الغطاء قائلاً: "لا شكّ أنّك متعبة، خذي قسطاً من الراحة".

نمنا كطفلَين في تلك الليلة، واستيقظنا في الصباح الباكر. كان تشانغ أفضل حالاً. قالت الشابّة إنّه بإمكاننا تناول إفطار من الفطائر المقلية بالزيت، والخبز، وحساء الأرزّ. لكن إن كان هذا الإفطار لا يروق لنا، يمكنها الذهاب وشراء بعض الفطائر إن كنّا نستطيع الانتظار حتّى الساعة الثامنة. فقلنا لها إنّ إفطار النـزل يبدو جيّداً.

استأنفنا الرحلة. بحلول الظهيرة، وبعدما عبرنا مقاطعة تونغ، دخلنا بكين، واتّجهنا مباشرة إلى شارع تشانغآن، هناك، ضغط تشانغ على دوّاسة الوقود وتجاوز كلّ سيّارة على الطريق، إلى أن أوقفَنا شرطيّ يرتدي زيّاً أزرق مع أكمام طويلة بيضاء، ويحمل عصا في يده. أنّب تشانغ على سرعته، الأمر الذي اعتذر عليه تشانغ باستفاضة، قائلاً إنّها المرّة الأولى التي يأتي فيها إلى بكين، وإنّ قوانين السير جديدة عليه. بكين! يا إلهي، إنّها بكين! من كان ليصدّق أنّه في الثامن عشر من يناير 1978، سيجد شابّ فقير من شمال شرق

غاومي نفسه في بكين، يتشارك الطريق مع سيّارات سيدان السوداء والبيضاء وسيّارات الجيب الخضراء؟ كنت محاطاً بناطحات السحاب، وبالمباني الضخمة، وبأجانب ذوي أنوف شامخة وعيون زرقاء. في ذلك الوقت، لم تكن المدينة تتجاوز عُشر مساحة بكين اليوم، لكن في عيني كانت عملاقاً مخيفاً.

3

بعدما عبرنا المدينة، تابعنا مسيرنا شمالاً على طول طريق متعرّج، عبر طريق يويونغ، واستغرقنا ساعة أخرى قبل وصولنا إلى مجمّع المقرّ الذي كان وجهتنا. استُقبلت حمولة التفّاح والبصل بحفاوة كبيرة. وما إن تمّ تفريغها، حتّى أعيد تحميل الشاحنة بطاولة كرة طاولة، وأربع كرات سلّة، وعشر بنادق مع حراب تمرين، وأربعة دروع، وعشرين قنبلة تدريب، ومعطفَي حراسة. في رحلة الذهاب كنّا اثنين، لكن في رحلة العودة اصطحبنا رفيقاً؛ السائق الجديد لوحدتنا. انضمّ إلينا تيان هُوْ، الذي تمّ تجنيده عام 1977 من يشوي، شاندونغ، وكان قد تخرّج مؤخّراً من كلّية التدريب على القيادة. بعينيه الكبيرتين وأسنانه الجميلة البيضاء، بدا شابّاً حتّى بالنسبة إليّ.

كنّا على وشك مغادرة بكين، ومن يدري ما إذا كنت سأعود إليها يوماً، الأمر الذي جعلني أشعر أنّني تعرّضت للغشّ عندما اكتفينا بالمرور عبرها. هكذا، طلبنا إذناً للبقاء لبضعة أيّام في المدينة. وحتّى لو استطعنا المكوث ليوم واحد فقط، يمكننا على الأقلّ أن نلتقط صورة لنا في ساحة تيانانمين. فمن شأن هذا الأمر وحده أن يجعل الرحلة تستحقّ العناء. أعطانا المسؤول المضياف إذناً لثلاثة أيّام لرؤية المدينة، واتّصل بدار الضيافة التابع لمنظّمتنا للإقامة فيه. وبما أنّ أيّاً منّا لم يكن يملك بطاقة إقامة أو بطاقة تعريف عسكرية - تطلبها جميع الفنادق ودور الضيافة في المدينة - كنّا بحاجة إلى رسالة تعريف. فأعطى كلاًّ منّا رسالة، مع ختم رسمي أحمر، يمكننا استعمالها للإقامة على طول الطريق.

كانت محطّتنا الأولى هي الساحة، التي اصطففنا فيها لأخذ الصور، لنعود ونصطفّ مجدّداً عند ضريح الرئيس ماو للدعاء. وقفت أحدّق إلى وجهه الراقد في التابوت الكريستالي، وفكّرت باليوم الذي وصلنا فيه خبر وفاته المأسوي قبل عامين، وجعلني أدرك أنّه لا مكان في العالم للخالدين. فقد كنّا مقتنعين أنّ الرئيس ماو لن يموت، لكنّنا كنّا مخطئين. اعتقدنا أيضاً أنّ وفاته كانت نذيراً بهلاك الصين. لكن بعد عامين، لم تكن الصين موجودة فحسب، بل بدأت تزدهر أيضاً. إذ فتحت المدارس والجامعات أبوابها مجدّداً، وخرج ملاّك الأراضي الريفية والفلاّحون الأغنياء من وضعهم المزري، وأخذت الثيران المنتمية إلى فرق الإنتاج تزداد سُمنة. حتّى أنّ شخصاً مثلي كان يلتقط صورته أمام ساحة تيانانمين، ويشاهد شخصيّاً جثّة الرئيس ماو. خلال اليومين التاليين، قمنا بزيارة حديقة بيخاي، وهيكل السماء، وبجانبه، متحف التاريخ الطبيعي، الذي كان أكثر ما فيه إثارة، على الأقلّ بالنسبة إلينا، هو هيكل عظمي لديناصور. ألقينا نظرة أيضاً على المدينة المحرّمة، وحديقة جينكشان، والقصر الصيفي، وحديقة الحيوان، ووانغفوجين الصاخبة. اشتريت من متجر في شيدان ثلاث حقائب ظهر جلدية سوداء، واحدة لي واثنتين لرفيقيّ في السلاح. اشتريت أيضاً وشاحاً وردياً لخطيبتي، التي عرّفني عليها أحد أقاربـي عندما كنت أعمل في مصنع القطن. عندما رآني متردّداً بعض الشيء، قال بصوت خشن: "لا تكن غبياً! عندما تحاول نعجة جميلة سمينة الدخول، لا تحسبها كلباً يخربش على بابك!"

(

. :"

.

. :

! :

. . ."

.)

وقفنا نحن الثلاثة في الصفّ مرّة أخرى لساعتين في متجر شهير لبيع الفطائر بجانب بازار شيدان، واستمتعنا بوجبة فطائر صُنعت بالآلة، وتمّ ملؤها باللحم الدسم الذي كان ينضح بالدهن مع كلّ قضمة. كانت الآلة تُخرج الطعام من خلف طاولة بارتفاع الخصر للزبائن الجالسين حول عشر طاولات تقريباً أمامها. رحت أفكّر بروعة ذلك الاختراع. كان العجين، والماء، واللحم يدخل من جهة ليخرج على شكل فطائر من الجهة الأخرى، وينـزل مباشرة في قدر من الماء المغلي. يا له من إنتاج عبقري! عندما أخبرت والدتي عن تلك

الآلة المدهشة، رفضت تصديقي. والآن، عندما أعود بذاكرتي إلى ذلك النهار، أجد أنّ الفطائر التي كانت تخرجها تلك الآلة كانت سميكة وقليلة الحشوة، وكان نصفها يبقى في القدر بسبب شقوق في سطحها. لم تكن شهيّة لا شكلاً ولا طعماً، لكن في ذلك الوقت، كان تناول وجبة فطائر من صنع آلة في متجر قرب بازار شيدان مدعاة للفخر بالنسبة إلينا في بلدتنا. بالطبع، لم يعد أحد يأكل فطائر من صنع آلة. ففي أيّامنا، تتكبّد محلاّت الفطائر عناءً كبيراً للترويج لفطائرها المصنوعة يدوياً. وفي تلك الأيّام، كان اللحم الدسم هو الحشوة المثالية، أمّا اليوم، فأصبحت الفطائر النباتية هي الرائجة. وهذا مثال واضح على كيفيّة تغيّر الأمور.

في طريق عودتنا، سلّم تشانغ زمام القيادة إلى تيان هُو، وحشر نفسه في المقعد المجاور للسائق معي. وصول تيان وضعَ حدّاً نهائيّاً لحلمي بأن أصبح يوماً سائق شاحنة. عندما رأى تشانغ القنوط الذي أصابني، قال لي بشيء من التشجيع: "أنت موهوب جدّاً لتضيع حياتك كسائق شاحنة. سيكون هذا مثل إسقاط بعوضة بمدفع. كن صبوراً، فالحظّ سيبتسم لك يوماً ما". ساعدني ذلك، لكن من كان يستطيع التفكير في المستقبل في وقت كهذا؟ كيف كنت سأتقبّل احتمال عودتي إلى المنـزل بعد عامين من الكفاح لأكوّن حياتي من دون شيء أتباهى به؟ كلاّ، لم يكن هذا لي! عليّ أن أواصل الكفاح! سأواصل الكفاح!

في بكين، حلمت أنّني عدت إلى قريتي مع الفنّي تشانغ وركنّا شاحنتنا بجانب تلك التي يقودها والد لو وينلي أمام ملعب مدرستي: شاحنتَي غاز 51 جنباً إلى جنب، مع شريطَين من الحرير الأحمر على غطاء المحرّك، وزهرة حريرية حمراء تزيّنه. عزفت الفرقة العسكرية للطلاّب الذين قاموا بتأدية رقصة إيقاعية بسيطة بالأشرطة الحريرية. وعندما حلّ الليل وخيّم الهدوء، أتيت إلى الملعب في ضوء القمر الساطع، وهناك، مثل زوج من الجراء، كانت الشاحنتان تلامسان أنفيهما للتعرّف على بعضهما. نهقتا مثل حمارين انفصلا منذ زمن طويل. تراجعتا مائة متر، ثمّ تقدّمتا ليتلامس أنفاهما مرّة ثانية، وثالثة. ثمّ تراجعت شاحنة والد لو وينلي إلى الخلف، قبل أن تتقدّم مسرعة، تتبعها شاحنتنا عن قرب. شاحنتا غاز 51 تطوفان في الملعب، مثل ذكر حمار يلاحق أنثى. ثمّ اتّضح لي الأمر على حقيقته: لم تكونا توأمين، بل عاشقَين! بدأت المطاردة، تلاها التزاوج، وولد طفل غاز 51. عندما رويت حلمي لرفيقيّ، قال تشانغ: "يبدو أنّه علينا القيام بزيارة لمزرعة نهر جياو العامّة".

قال تيان: "راود أبـي حلم كهذا مرّة، إلاّ أنّه تعرّض لحادث في اليوم التالي". كان والد تيان سائق شاحنة هو الآخر.

قال تشانغ: "لا تتكلّم مثل غراب ينذر بالشؤم، أيّها الأحمق!"

كان هذا النوع من التعليقات المشؤومة من المحرّمات بالنسبة إلى تشانغ، فأفسد ما كان ينبغي أن نتطلّع إليه بحماسة. وصلنا إلى ويفانغ حوالى الساعة التاسعة، وكانت النجوم متلألئة في سماء الليل. قال تشانغ: "صغيري مو، كانت رحلتنا طويلة. بدأت أشعر بالثقل في أجفاني، وأخشى من حدوث شيء سيّئ لابني تشينبينغ. ما رأيك لو اصطحبتك إلى محطّة قطار ويفانغ، لتقوم بزيارة إلى قريتك؟ سأحصل لك على إجازة عندما أعود إلى المعسكر. وفي حال وجود أيّ مشكلة، سأهتمّ بها. وأنا والصغير تيان سنسلك طريق يان-وي السريع للعودة إلى المعسكر".

أدركت شعوره. تخيّلت دخولنا إلى قريتي بشاحنتنا الغاز 51 في استقبال حاشد مرّات عديدة، لكنّ تلك الفقاعة انفجرت الآن، وشعرت بإحساس رهيب. غير أنّه لم يكن من السهل رفض فرصة العودة إلى الديار للمرّة الأولى خلال عامين منذ التحاقي بالجيش. هكذا تابع تشانغ وتيان رحلتهما بعدما أنـزلاني عند محطّة قطار ويفانغ. واصلت النظر إلى أضواء الشاحنة الخلفية ما استطعت، ثمّ ذهبت لشراء تذكرة.

للمرّة الثانية في حياتي، ركبت القطار. كانت المرّة الأولى عندما رافقت شقيقي الأكبر وأحد أبناء أخي إلى تشينغداو، وذهبنا من هناك على متن باخرة إلى شانغهاي. كان ذلك في الربيع، وكنت في الثامنة عشرة من عمري. كان ركوب القطار أمراً عظيماً في ذلك الحين، وتباهيت به لفترة طويلة بعد عودتي إلى القرية. شعرت بالحماس نفسه

تقريباً هذه المرّة. كان القطار مزدحماً ومشبعاً برائحة البول. وقع عراك بين شابّين حول بقعة في الحمّام. فخرج الأوّل بأنف نازف، والثاني بأذن جريحة. بدا كلّ ذلك طبيعيّاً جدّاً بالنسبة إليّ في ذلك الوقت. كانت المسافة من ويفانغ إلى غاومي تزيد قليلاً عن مائة كيلومتر، إلاّ أنّ الرحلة استغرقت أكثر من ثلاث ساعات على طريق وعرة. في عام 2008، أصبحت الرحلة من بكين إلى غاومي، اللتين تبعدان عن بعضهما حوالى ثمانمائة كيلومتر، تستغرق خمس ساعات فقط على خطّ هارموني.

وصلنا إلى محطّة غاومي في الصباح الباكر. كانت الشمس قد أشرقت للتوّ، وصبغت السماء باللون الأحمر. خرجت بعدما تمّ وضع إشارة على تذكرتي، ولفت انتباهي على الفور صوت تغنّي من الأوبرا التقليدية وكان صادراً من متجر قريب لبيع الفطائر وحليب الصويا. مزّقتني الأغنية الشهيرة، والبطيئة، والحزينة بصوت امرأة عجوز. (ماوتشانغ). دخلت واشتريت نصف كاتي من الفطائر المقليّة بالزيت مع كوب من حليب الصويا، وجلست أصغي وأنا آكل.

اصطفّ الباعة المتجوّلون على جانبـي الساحة الممتدّة أمام المحطّة، وحاولوا إغراء الزبائن لشراء ما يبيعونه. قبل عامين من ذلك، كان المكان الوحيد الذي تستطيع فيه شراء طعام قرب المحطّة هو مطعم تديره الدولة، ويمتاز بخدمة رديئة جدّاً. بعد ذلك، بدأ أصحاب المشاريع الصغيرة يدخلون على الخطّ، وخلال بضع سنوات، ارتفعت أعداد الأكشاك الخاصّة مثلما ينمو الخيزران بعد هطول المطر في الربيع. انتشرت في كلّ مكان، بينما راحت أعداد المطاعم العامّة والجماعية، وتعاونيّات العرض والتسويق، والمحلاّت التي تديرها الدولة تتقلّص تدريجيّاً.

استقلّيت حافلة متّجهة إلى المنطقة الشمالية الشرقية، ولم أصل إلى قريتي سوى عند الساعة الثالثة من عصر ذلك اليوم. كان مرأى ذلك البيت المتداعي، والأسوأ من ذلك، أبويّ اللذين تقدّما في السنّ منذ آخر مرّة رأيتهما فيها يفوق احتمالي. أخبرتهما بكلّ شيء عن الوضع في المعسكر، وكيف أنّ الوصول إلى السلطات الحكومية أغلق في وجهي، وتبدّد حلمي في أن أصبح سائق شاحنة. وقلت لهما إنّ أفضل ما يمكنني فعله هو العودة إلى الديار بعد انتهاء عامَي التجنيد في الجيش. "كنّا نظنّ أنّها فرصتك لتأسيس حياتك..."

قلت: "من سوء حظّي أنّني عُيّنت في ذلك المكان. لو أنّه تمّ إرسالي إلى جيش ميداني، لربّما كنت أصبحت ضابطاً الآن".

قال أبـي: "ما فائدة هذا الحديث؟ أنت ترى الوضع هنا. عد وابذل ما في وسعك، ولا تخشَ من العمل. فالناس يموتون من المرض، وليس من العمل الشاقّ. كن دؤوباً، وعاجلاً أم آجلاً سيلاحظ رؤساؤك ذلك. وإن لم تتمّ ترقيتك، ولم يرغبوا في تعليمك القيادة، إعثر على طريقة للانضمام إلى الحزب. لقد كنت شيوعياً مخلصاً طوال حياتي، لكنّني لم أُمنح أبداً فرصة دخول الحزب. لا مستقبل لديّ، على عكسك أنت. حاول إيجاد وسيلة للانضمام إلى الحزب أثناء وجودك في الجيش. هكذا يمكنك العودة إلى القرية بشيء من الكرامة".

4

استدعاني قائدي بعد فترة قصيرة من وصولي إلى المعسكر. قال لي إنّنا حصلنا على حصّة لامتحان القبول في الكلّية الهندسية والتقنية التابعة لجيش التحرير الشعبـي في مدينة دجينغدجو، وإنّه بعد التشاور، تمّ اختياري للدراسة من أجل التقدّم للامتحان. شعرت وكأنّ انفجاراً صغيراً حدث في دماغي، وأنّ عقلي توقّف عن العمل للحظة. أذكر أنّ وجبة الغداء في ذلك النهار كانت تتألّف من كرات اللحم، وهي وجبة خاصّة ونادرة في ذلك الوقت، إلاّ أنّها كانت المرّة الأولى التي أتناول فيها اللحم من دون أستطعم به، وكأنّني أمضغ شمعاً.

لماذا؟ لأنّ القلق انتابني. فقد اختارني رؤسائي للتقدّم للامتحان على افتراض أنّني خرّيج المرحلة الثانوية، في حين أنّني لم أتجاوز في الواقع الصفّ الخامس. لم أظنّ أنّني سأواجه أيّ مشكلة مع مادّتي اللغة والسياسة، إلاّ أنّني كنت أمّياً تقريباً في ما يتعلّق بالرياضيات، والفيزياء، والكيمياء. وكان التخصّص المطلوب هو الإصلاح النهائي للكمبيوتر، وهو مجال يتجاوز قدراتي بكثير. إلاّ أنّ معرفتهم بخلفيّتي التعليمية سيضع حدّاً لفرص إحرازي أيّ تقدّم. هكذا، تمالكت نفسي، وقلت إنّني سأبذل قصارى جهدي. قال لي فنّي راديو في المعسكر يدعى مَا، وهو شابّ في سنّي من هونان، إنّنا مُنحنا، على حدّ علمه، هذه الفرصة تقديراً لكوننا محطّة خارجية، وإنّ الامتحان كان مجرّد شكليّات، أي أنّني سأدخل إلى الكلّية ما لم أقدّم ورقة بيضاء. فقلت: "لكنّني أجهل حتّى كيفية التعامل مع القواعد الأربعة في علم الحساب، والكسور غريبة عنّي تماماً".

عرض عليّ تدريبـي. قال: "ما من شيء لا يستطيع شخص ذكيّ مثلك إتقانه. ولديك ستّة أشهر للاستعداد". كان هذا كلّ التشجيع الذي يلزمني لأشمّر عن ساعديّ وأحاول. أوّل ما فعلته كان إرسال رسالة إلى المنـزل طالباً أن يرسلوا إليّ كتب شقيقي الأكبر للمرحلتين المتوسّطة والثانوية. بعد ذلك، أصبحت غرفة الفنّي مَا صفّي كلّ ليلة من ليالي الأسبوع. سمحت لنا قيادة المعسكر باستخدام مكتب ومقعد في المخزن، وهكذا تمكّنت من الدرس هناك عندما لا أكون في واجب حراسة. ولكي أتمكّن من التركيز على دراستي، تمّ تكليف مجنّد من عام 1977 مؤقّتاً بمهامي بصفة نائب قائد وحدة.

كان أخي أوّل شخص من منطقة شمال شرق غاومي يرتاد الجامعة. وقد أضفى هذا الأمر على الأسرة مكانة كبيرة، بحيث حلمت منذ نعومة أظفاري أن أحذو حذوه. وها قد سنحت لي الفرصة الآن لتحقيق ذلك الحلم. إلاّ أنّ إتقان رياضيات، وفيزياء، وكيمياء المرحلة الثانوية بمفردي في غضون ستّة أشهر شكّل تحدّياً هائلاً. لم يكن لديّ الوقت الكافي لحلّ التمارين، لذلك اكتفيت بالقراءة ومحاولة فهم كلّ ما تحتويه الكتب المدرسية التي أُرسلت إليّ. كان عليّ حفظ كلّ تلك الصيغ عن ظهر قلب، حتّى وإن لم أفهمها. هكذا، غطّيت جدران المخزن بصيغ كتبتها بقلم الرصاص وأنا أكافح، متأرجحاً بين الأمل واليأس، وفي معظم الأوقات كنت أقرب إلى هذا الأخير. راحت آمالي تتضاءل. شحب وجهي، وخسرت من وزني، وبات شعري في حالة من الفوضى، بحيث علّق مدرّبنا السياسي قائلاً إنّني صرت أبدو أشبهَ بمحكوم. بعد ذلك، وفي أحد أيّام أغسطس، استدعاني وقال لي: "تلقّيت للتوّ مكالمة هاتفية، وأُفدت أنّ الامتحان الذي وُعدنا به قد ألغي. أتوقّع منك أن تتعامل مع هذا الموقف بالطريقة الملائمة". من جهة، شعرت وكأنّ عبئاً ثقيلاً أزيح عن صدري، لكن من جهة أخرى، شكّل الخبر خيبة أمل كبيرة. أعلن المدرّب السياسي الخبر أمام المعسكر بأكمله في ذلك اليوم، مضيفاً أنّه سيعيد إليّ واجباتي كنائب لقائد الحرس الأمني.

جاء هذا الإعلان خلال حملة ناشطة لمحو الأمّية على صعيد الجيش، وأُوكلت إليّ مهمّة تعليم الرياضيات لأفراد المعسكر. هكذا بدأتُ، وبينما رحت أدرّس الرياضيات للجنود، أدركت كم تعلّمت في غضون ستّة أشهر وحسب. حتّى أنّ أحد الضبّاط استمع إلى محاضرتي في المثلّثات وأعجب بها فعلاً. كان لذلك الصفّ دور فاعل في انتقالي لاحقاً إلى كتيبة تدريب باودينغ. صحيح أنّ حلمي بدخول الجامعة تبدّد، إلاّ أنّ هذا الأمر زاد من رغبتي في أن أصبح كاتباً. في تلك الأيّام، كان من الممكن للمرء أن يكسب اعترافاً وطنياً

من نشر قصّة قصيرة واحدة. هكذا اشتركت في مجلّتين - و
- وفي سبتمبر من عام 1978، بدأت بدارسة الإبداع الأدبـي. وكانت محاولتي الأولى قصّة قصيرة تحت عنوان "ماما". أتبعتها بمسرحية من ستّة فصول تحمل عنوان .

كان ساعي بريد الوحدة رجلاً في منتصف العمر يدعى سون، يعاني من تشوّه في عينه اليسرى. وكان الجميع يناديه سون العجوز. الجميع باستثناء بضعة ضبّاط أركان وقحين كان معروفاً بينهم بلقب "التنّين الأعور". كان نبضي يتسارع في كلّ مرّة أسمع فيها صوت درّاجته النارية، آملاً وصول أخبار جيّدة بشأن المخطوطتين. لكنّ أفضل خبر تلقّيته هو رسالة رفض مبدئيّة من مجلّة ؛ كانت مسرحية طويلة جدّاً من حيث عدد صفحاتها، وعليّ إرسالها إلى مكان آخر. عشيّة انتقالي إلى باودينغ، ومن أجل تخفيف وزن أمتعتي، وفي محاولة للبدء من جديد، أحرقت المخطوطتين. عندما عدت إلى المعسكر في عام 1999، كانت الثكنة تُستخدم لتربية الدجاج. وحين ذهبت لإلقاء نظرة على المخزن، استطعت تمييز صيغ الرياضيات، والفيزياء، والكيمياء التي كتبتها على الجدران.

5

كان عام ألف وتسعمائة وتسع وسبعون عاماً بارزاً بالنسبة إلى البلاد وإليّ. ففي السابع عشر من شهر فبراير، شنّت قوّاتنا المسلّحة هجوماً مضادّاً ضدّ العدوان الفيتنامي. فقام 200.000 جندي من غوانكشي ويونان بعبور الحدود إلى فيتنام. في اليوم التالي، وفي حين كنّا نتناول وجبة الإفطار، سمعنا تقريراً إذاعياً يفيد أنّ جندياً بطلاً يدعى لي تشينغوين قُتل خلال قيامه بتفجير موقع محصّن للعدوّ. كان قد تمّ إرسال كثير من المجنّدين معنا إلى الخطوط الأمامية، وقد حسدتهم في أعماقي، لأنّني كنت أتوق إلى نيل فرصة للذهاب إلى الجبهة لكي أصبح بطلاً أنا أيضاً. إن بقيت على قيد الحياة، تتمّ ترقيتي تقديراً لبسالتي، وإن قُتلت، سيفوز والداي بلقب أسرة البطل، وهذا ما سيغيّر جذرياً من وضعهم السياسي. بذلك، لا يكونان قد تعبا على تربيتي عبثاً. في الواقع، لم أكن الوحيد الذي يفكّر بتلك الطريقة. فربّما كان هذا الأسلوب من التفكير ساذجاً ويفتقر إلى النضج، لكنّها العقلية الملتوية التي اكتسبناها نحن، أطفال الفلاّحين المتوسّطين المضطهدين. إذ كان الموت البطولي أفضل من الحياة الوضيعة. بقتالنا على الجبهة، لم نعد وحدة غير منضبطة. قمنا بكلّ ما كان متوقّعاً منّا: تدريب عسكري، حراسة، أو عمل. لكن سرعان ما انتهت الحرب، واسترجعنا على الفور عاداتنا القديمة.

في أواخر يونيو، حصلت على إذن للعودة إلى الديار لكي أتزوّج. جرى الاحتفال في الثالث من يوليو، في يوم ممطر. خلال إجازتي، رجع عدّة رجال شاركوا في الحرب إلى ديارهم مكلّلين بالمجد، وحصل اثنان منهم على ترقيات ساحة المعركة. آه كم حسدتهم. لكن ما الذي ينتظرني؟ ربّما خلال أشهر قليلة سأترك الجيش وأعود إلى من ـزلي.

في اليوم التالي للزفاف، ركبت درّاجتي إلى مزرعة نهر جياو العامّة، وأخبرت زوجتي أنّني ذاهب لرؤية بعض أصدقاء المدرسة القدامى. لكنّ السبب الحقيقي كان رغبتي في رؤية الغاز 51 التي كان يقودها والد لو وينلي، تلك التي أوشكت على التسبّب بمقتلي. وجدتها في مرآب السيّارات، وكان والد لو وينلي يقوم بطلائها. تقدّمت منه، ثمّ أخرجت علبة سجائر، وقدّمت له واحدة. قلت له: "سيّد لو، هل عرفتني؟" فهزّ رأسه نافياً. "كنت زميل لو وينلي في المدرسة الابتدائية. اسمي مو شي [يان]".

"آه، الآن عرفتك. أنت من سرق زوج قفّازات من شاحنتي عندما ركنتها عند مدخل قريتك".

قلت: "لم أكن أنا، بل خِيْ دجيوُو، ولم يسرق زوج قفّازات وحسب، بل قام أيضاً بإفراغ إطاراتك من الهواء".

"آه، ذلك الوغد الصغير! نسمّي من هم مثله إوزّاً ملتوي العنق. كان رأسه حافلاً بالأفكار السيّئة. لم يكتفِ بإفراغ الإطارات من الهواء، بل أخذ معه أغطية الصمامات! وبعد ذلك، أتى ليستعير زيّي وقبّعتي! قال إنّني إن لم أعره إيّاها، سيرمي المسامير على الطريق لثقب إطارات شاحنتي". أنعش كلامه ذاكرتي التي استعادت مشهد الشاحنة متوقّفة في أحد الأيّام في الشارع، مع أربع إطارات ضاربة من أصل ستّة، ووالد لو وينلي يستشيط غضباً ويشتم بأعلى صوته. كنت المشتبه به الرئيس، ما دام الأمر يتعلّق بالمدرسة، واستجوبوني مطوّلاً. حتّى أنّ ليو ذا الفم الكبير رفع مِسعَراً حامياً أمام وجهي وأمرني بالاعتراف. لكن لم يكن ثمّة ما يدعو إلى القلق لأنّني لم أفعلها، ولم يخفني المِسعر.

سألته عمّا تفعله وينلي. فأجاب أنّها تعمل في مصنع المطّاط في المقاطعة. قلت له: "إيجاد وظيفة في المزرعة العامّة هو أمر عظيم بما أنّها ملك الشعب كلّه، ومصنع المطّاط هو مصنع جماعي".

قال: "ظننتك تعرف أنّ المقاطعة هي من يدير المزرعة الآن، وأنّه سيتمّ التعاقد على الأرض. قريباً لن يكون ثمّة فرق بيننا وبين الفلاّحين".

أشرت إلى الشاحنة نصف المطليّة وإلى الآليات الصدئة في المرآب. "وماذا عن كلّ هذه الأشياء؟"

"سنبيع منها ما أمكننا ونترك الباقي يصدأ".

"هل ستبيع الغاز 51؟"

"منذ بضعة أيّام، أرسل خِيْ جيوُو برقية من منغوليا الداخلية يقول فيها إنّه سيدفع لي ثمانية آلاف ينّ ثمناً للشاحنة، وهذا مبلغ كبير على شاحنة قديمة. أعتقد أنّ ذلك الوغد الصغير فقد عقله. فبخمسة آلاف ينّ أخرى يمكنه شراء شاحنة ليبيرايشن جديدة من خطّ التجميع. هل تعتقد أنّه يحاول الاستهزاء بـي؟"

بسيل من العواطف، قلت في نفسي: "خِيْ جيوُو، ما الذي يخطّط له عقلك اللامع هذه المرّة؟ من الواضح أنّك كسبت كثيراً من المال، لكن لماذا تنفق مبلغاً كبيراً كهذا على شاحنة قديمة مهترئة؟ هل يستحقّ بعض الحنين كلّ هذا؟" قلت بصوت عالٍ: "سيّد لو، لا أعرف ما الذي يدور في خلده، لكن أشكّ أن يحاول الاستهزاء بك".

قال لو: "حسناً، فليفعل ما يريد، لكنّني لست واثقاً أنّني أرغب في بيعها. هل تعرف كم مضى علينا معاً أنا وهذه الشاحنة؟ لقد نشأ بيننا رابط دائم". عاد إلى الطلاء، ثمّ سألني بعد برهة: "أين يقع مركزك؟"

"في مقاطعة هوانغ".

"لا بدّ أنّه الفوج 34 في قيادة حامية بنغلاي".

"نحن ملحقون بهيئة الأركان العامّة تحت إشراف الفوج 34".

"أنا وقائد الفوج، شو، رفيقا سلاح. كان ضابط تدريب الفوج عندما كنت قائد السرية".

قلت بحماس: "سمعت تقريراً من القائد شو مرّة. يا لها من صدفة! هل تريدني إيصال شيء له؟ فأنا عائد غداً".

قال بحزن: "إنّه قائد قوي، وأنا مجرّد سائق شاحنة. سيبدو الأمر وكأنّني أتملّقه".

أردت أن أقول رأيي، إلاّ أنّه استأنف طلاء الشاحنة. كنت أعرف ما حدث له. فبعد عودته من ساحة المعركة أثناء الحرب الكورية، تمّت ترقيته إلى رتبة نقيب، وأصبح قائد سرية. كان مستقبله مشرقاً. لكن مثل كثير من الشباب الصاعدين، أصبح متعجرفاً، ولم يتصرّف بحكمة، فدمّر ما كان يمكن أن يصبح حياة مهنية عسكرية ناجحة.

في ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي، قصدت البلدة لشراء تذكرة حافلة للعودة إلى مقاطعة هوانغ. بما أنّني كنت أملك ساعتين قبل انطلاق الحافلة، قرّرت القيام برحلة جانبية إلى مصنع المطّاط الذي يبعد مسافة ثلاثين دقيقة سيراً على الأقدام. عندما قلت لحارس البوّابة العجوز إنّني أبحث عن لو وينلي، قال لي إنّها كانت في المناوبة الليلية حسب ظنّه. ثمّ سألني لماذا أريد رؤيتها، فأخبرته أنّها كانت زميلتي في المدرسة، وبما أنّني في المنطقة، فكّرت في زيارتها لأسلّم عليها. عندما لاحظ أنّني جندي، عرض الذهاب ليرى ما إذا كانت موجودة. قلت له: "شكراً".

"احرس البوّابة بينما أذهب للبحث عنها". نظرت إلى ساعة يدي - كنت قد استعرت ساعة دجونغشان ثمنها ثلاثين ينّاً من أحد أصدقائي - للتأكّد من أنّ الحافلة لن تفوتني. بعد وقت بدا طويلاً، رأيت الحارس العجوز آتياً مع لو وينلي في أعقابه. أتت تمشي بحذائها المطاطي، وقد ارتدت سروالاً قطنياً وألقت معطفاً على كتفيها. لم يكن شعرها مسرّحاً، وبدا النعاس في عينيها. كانت تتثاءب.

تقدّمت وناديتها باسمها. بعدما رمقتني من رأسي إلى أخمص قدميّ، قالت ببرود: "إذاً هذا أنت، ماذا تريد؟"

شعرت فجأة بالإحراج، فقلت: "لا شيء، حقّاً. كنت عائداً للالتحاق بوحدتي... ولديّ بعض الوقت قبل انطلاق الحافلة... ففكّرت بإلقاء التحيّة على زميلة قديمة... ذهبت إلى مزرعة نهر جياو العامّة البارحة، ورأيت والدك. قال لي إنّك تعملين هنا..."

قالت باقتضاب: "إن كان هذا كلّ شيء، سأعود إلى سريري". ثمّ استدارت ومشت مبتعدة. لم يسبق لي أن شعرت بإحراج أكبر وأنا أحدّق إلى ظهرها.

لم يكن قد مضى على عودتي إلى الوحدة سوى شهرين عندما تلقّيت أمر نقل إلى فوج تدريب باودينغ. الشابّ الذي أعارني ساعة دجونغشان عندما عدت إلى القرية لأتزوّج - كنّا من القرية نفسها - قال لي متنهّداً: "يبدو أنّ الزواج يجلب الحظّ السعيد. سأذهب إلى الديار وأفعل الشيء نفسه بعد أيّام قليلة". قبل مدّة قصيرة من رحيلي عن الوحدة، نظّم أحدهم مباراة كرة سلّة بيننا وبين ضبّاط الأمن. لم أفوّت رمية واحدة في ذلك اليوم، كانت أفضل مباراة في حياتي.

في العاشر من سبتمبر، غادرت مقاطعة هوانغ مع الفنّي مَا، الذي كان لديه عمل في بكين. أوصلنا تيان هُوْ إلى محطّة قطار ويفانغ في الشاحنة. إلى اللقاء، غاز 51. (

.

.

"

.

".   ).

في باودينغ، كنت قائد فرقة مسؤولة عن تدريب الطلاّب المجنّدين من المدرسة الثانوية لذلك العام. سيدرسون لعامين، أي ما يعادل برنامج ثانوي-جامعي، ويتخرّجون برتبة ضابط بالدرجة 23. كان تخصّصهم معروفاً بعنوان طويل، إلاّ أنّه انكمش ليقتصر على وضع زوج من السمّاعات، وكتابة البرقيّات.

عندما انتهت المهمّة، بعد شهر، تمّ إبقائي في الفوج: أوّلاً في وظيفتي الأمنية، ومن ثمّ كمدرّس سياسة مكلّف بتدريس الفلسفة وعلم الاقتصاد السياسي، وهما مجالان لم أكن مطّلعاً عليهما إطلاقاً. مثل بطّة أُجبرت على تسلّق رفّ، أرغمت نفسي على المحاولة. كان الأمر مضنياً في البداية، إلاّ أنّني بدأت أعتاد بعد انقضاء الفصل الأوّل. ما حدث بعد ذلك هو أنّ طموحاتي الأدبية المحبطة بدأت تتحقّق. ففي شهر سبتمبر من عام 1981، نُشرت أوّل قصّة لي، "ليلة ربيع ممطرة"، بعدما تعرّضت للرفض عدّة مرّات، وذلك في مجلّة

في باودينغ. وظهرت قصّة ثانية، "الجندي القبيح"، في المجلّة نفسها في الربيع التالي. الآن، فإنّ جندياً عادياً يتولّى واجبات ضابط، ويستطيع أن يشرح ببلاغة مبادئ الماركسية إلى ما لا نهاية لمجموعة من الطلاّب، وقادر على تأليف القصص، سيلفت الانتباه حتماً.

(1981.

]   [   ]

["]   ".[

.

"   "   .(

بمساعدة كثير من العسكريين النافذين الطيّبين، استلمت في صيف عام 1982، عندما كنت في إجازة في المنـزلي، رسالة تفيد أنّهم خالفوا القوانين لترقيتي كضابط. ربّما كان أمر تعييني ضابط تدريب ما زال في ملفّي. أذكر أنّ والدي هو الذي أحضر لي الرسالة إلى المنـزل. وعندما أخبرته بمحتواها، أضاءت عيناه وبعثتا فيّ إحساساً بالدفء لكوني حقّقت إنجازاً هامّاً نوعاً ما. من دون أيّ كلمة، حمل مجرفته وخرج إلى الحقل. جعلني ردّ فعله أفكّر بما قام به أحد أقاربنا المسنّين من القرية المجاورة عندما تلقّى خبر ترقية ابنه. إذ راح يطوف في القرية وهو يقرع على جرس قرصي ويصيح: "ابني أصبح ضابطاً!" والطريقة المتحفّظة التي تعامل بها أبـي مع المسألة نفسها علّمتني الكثير عن شخصيّته، وأطباعه، وتجاربه في الحياة.

في عام 1984، تقدّمت إلى امتحان قسم الآداب في معهد الفنون التابع لجيش التحرير الشعبـي. وبعد ذلك بوقت قصير، نُشرت قصّتي التي تحمل عنوان "الجزرة الشفّافة" ولاقت شهرة واسعة، وسرعان ما تبعتها رواية   ، التي أحدثت ضجّة كبيرة. في عطلة صيف عام 1986، عندما كنت أتبضّع في سوق المدينة، التقيت بأحد معارفي من قرية مجاورة، أمسك بذراعي وصاح والدهشة تملأ عينيه: "سمعت أنّك جنيت ثروة! يقولون إنّك بعت رواية بمليون!" احتمال بيع رواية بمليون ينّ هو أمر وارد دائماً، بالطبع، لكن ليس في ذلك الحين. لكن قبل أن أتمكّن من تصحيح خطئه، قال: "لا تقلق، أنا لا أسعى إلى طلب المساعدة. فقد نجح ابني في امتحان للدراسة في أميركا! وخلال بضع سنوات، سنبدأ بتداول العملة الخضراء!"

في خريف عام 1987، قام تشانغ يِمو بإحضار غونغ لِي، وجيانغ وِن، وآخرين إلى غاومي لتصوير فيلم   ، التي كان عنوانها الأصلي   -   ، بعد حادث دام وقع في اليوم التاسع من الشهر التاسع في مكان يسمّيه الأهالي "تشينغشاكو". حتّى أنّه تمّ طلاء إحدى الحافلات الصغيرة لشركة الأفلام باللون الأحمر مع عبارة "تسعة-تسعة في

تشينغشاكو". لماذا إذاً لم يطلق عليه اسم   من البداية، بما أنّ هذا هو موضوع الفيلم؟ لم أسأل، ولم يتطوّعوا للإجابة. في ذلك الوقت، كانت صناعة السينما جديدة على أبناء منطقة شمال شرق غاومي. فمنذ بداية الخلق، لم يغامر أحد إلى هذه البقعة النائية لتصوير فيلم سينمائي. قبل أن يبدأ التصوير، دعوت الفريق إلى العشاء. أتى تشانغ يِمو وجيانغ وِن برأسين حليقين وأذرع عارية لوّحتها الشمس بعمق. وارتدت غونغ لي ملابس بسيطة، وسرّحت شعرها تسريحة ريفية. من دون مساحيق تجميل، بدت فتاة عادية. سبّبت غونغ لِي خيبة بالنسبة إلى أبناء القرية الذين افترضوا أنّ ممثّلات السينما يتمتّعن بجمال خارق. من كان ليتوقّع أنّها ستصبح نجمة عالمية بعد عقد من الزمن، تعيش حياتها بفخامة، وتتراقص في عينيها نظرات الدلال، دائماً المرأة المغناج؟

جذبوا حشداً هائلاً من المتفرّجين في اليوم الذي بدأ فيه التصوير، بما في ذلك أشخاص عاديون ركبوا درّاجاتهم من المقاطعات النائية، ومسؤولون جاؤوا بسيّاراتهم الرسمية. أتوا بمعنويّات عالية، ورحلوا بخيبة أمل.

تمّ استقبال فريق التمثيل في دار الضيافة في المقاطعة، ولم تكن غرفه مجهّزة لا بالمكيّفات ولا بالحمّامات الخاصّة، وهذا نموذجي بالنسبة إلى دور ضيافة المقاطعات في مختلف أنحاء البلاد. لم يكن الممثّلون في ذلك الحين ذوي شأن كما هو حالهم الآن. فبعد رحيل الفريق، قال لي أحد أصدقائي: "رأي الناس هنا بالممثّلين سيّئ جدّاً، لا سيّما جيانغ وِن ذاك، الذي أجرى اتّصالاً خارجياً دام أربع ساعات".

"وهل دفع ثمنه؟"

"أجل".

"ما المشكلة إذاً؟" أشكّ أنّ يُحدث أحد ضجّة كبيرة على شيء كهذا في هذه الأيّام. فالانتقال من "الكلّ يتدخّل في شؤون الكلّ" إلى حماية الخصوصيّة الفردية شكّل خطوة هامّة إلى الأمام بالنسبة إلى الصينيين. قبل وقت ليس ببعيد، رأيت ممثّلاً من أوائل الثمانينيات، حُكم عليه بالسجن لعشر سنوات بتهمة ارتكاب جريمة لا أخلاقية، يدافع عن قضيته على التلفزيون، ويشتكي من أنّ عقوبته لم تكن عادلة. أقرّ أنّه أقام علاقات جنسية بالتراضي مع عدّة نساء، وهو أمر كان يُعتبر في ذلك الحين جريمة خطيرة، احتلّت عناوين الصحف المحلّية. كان معظم الناس مقتنعين أنّه نال العقاب الذي يستحقّه. ولم يشعر أحد أنّ العقاب غير مناسب للجريمة. لو استخدمنا المعايير نفسها للحكم على العلاقات بين الجنسين هذه الأيّام... كم نحتاج إلى مزيد من السجون لإيواء المجرمين؟

حالما رأيت عربة فريق الفيلم، تذكّرت الغاز 51 التي كان يقودها والد لو وينلي، ثمّ اشتراها لاحقاً خِيْ دجِيوُو. كانتا باللون نفسه تقريباً، مع أنّ غطاء المحرّك بدا مختلفاً بعض الشيء عندما تفحّصته عن كثب. سمع القرويون أنّ خِيْ دجِيوُو كان في مونغوليا الداخلية، فتساءلت ما إذا كانت الغاز 51 ما زالت تخدمه.

6

في أغسطس 1988، تمّ قبولي في برنامج للدراسات العليا تديره جامعة بكين للمعلّمين بالاشتراك مع معهد لو شون للآداب. خلافاً لعام 1984، عندما تمّ قبولي في معهد الفنون التابع لجيش التحرير الشعبـي، لم يكن هذا الاختبار صعباً، على الأقلّ بالنسبة إليّ. شعرت بالدوار تقريباً عندما وصلني بلاغ معهد الفنون، لأنّه حقّق حلميّ الاثنين على السواء؛ أن أذهب إلى الجامعة وأن أصبح كاتباً. هذه المرّة، وكطالب دراسات عليا، سأحصل على درجة ماجستير. إلاّ أنّني كنت قد أصبحت معروفاً جداً، وتساءلت بماذا ستنفعني دراسة الآداب، إذ عرفت أنّ ما يهمّ الأديب هو الكتابة بحدّ ذاتها، وليس الخلفيّة التعليمية أو الشهادة الجامعية. عندما قرّرت عدم الحضور، نصحني أحد الأصدقاء بالنظر إلى الفائدة بعيدة الأمد، واستغلالها كفرصة لدراسة اللغة الإنكليزية، التي من شأنها أن تفيدني يوماً ما. كان محقّاً بطبيعة الحال. هكذا درست بجدّ لبضعة أشهر، وحفظت بضع مئات من الكلمات. لكن بعد ذلك اندلعت الحركة الطلاّبية، وتصاعدت التوتّرات يوميّاً، ولم يشعر كثير منّا بالرغبة في الذهاب إلى المحاضرات. وبما أنّني كنت جديداً على قوّة الإرادة، استخدمت تلك الأحداث كعذر لتأجيل دراستي للغة الإنكليزية. ومع مرور الوقت، واستلامي دعوات لزيارة دول أجنبية، وجدت أسباباً كثيرة للندم على عدم تعلّم بعض الإنكليزية عندما أتيحت لي الفرصة. منذ بضع سنوات، فكّرت في محاولة تعلّم بعض مهارات المحادثة الأساسيّة في اللغة الإنكليزية، إلاّ أنّني تخلّيت حتّى عن تلك الفكرة. وكلّ ما أتمنّاه هو أن يقوم أحد العباقرة بابتكار أداة ترجمة فورية بسيطة، ومريحة، وسهلة، ودقيقة. فمن شأن ذلك أن يسهّل رحلاتي إلى الخارج.

في ربيع عام 1990، عدت إلى بلدة المقاطعة وقمت بهدم مبان متداعية، وبناء أربعة منازل جديدة في غضون شهر واحد. في أثناء ذلك، أرسلت المدرسة عدّة برقيات تحثّني فيها على العودة. لكن عندما فعلت، شجّعتني السلطات على تركها. حتّى أنّني لم أفكّر بالأمر، بل وافقت فوراً. لاحقاً، قام بعض زملاء الدراسة بالتحدّث باسمي وتمكّنوا من الحصول على تأييد الأستاذ تونغ من جامعة بكين للمعلّمين لإبقائي في الدراسة. أجري حفل التخرّج في اليوم الأوّل من حرب الخليج. كان احتفالاً سريعاً من دون حفلة من بعده. أقلّني أحد طلاّب قسم السينما إلى المنـزل على درّاجته النارية ذات الثلاث عجلات. نظراً لعدم توفّر مهجع، اضطررت إلى النوم في مستودع للخردة، وكانت جحافل الفئران تبقيني مستيقظاً كلّ ليلة. صنعت إحداها عشّاً في صندوقي، وأنجبت قطيعاً من الصغار. ولسنوات لاحقة، ظلّت رائحة بول الفئران تفوح من ملابسي وأغطيتي. صففت عدداً من تماثيل الرئيس ماو التي كانت مخزّنة هناك في المدخل وقرب سريري لتؤدّي دور حرّاس. وفي أحد الأيّام، أتى بعض أصدقائي الكتّاب لزيارتي، ومرّوا من أمام الحرّاس. وعندما رأوا ما فعلته، أطلقوا عليّ لقب عبقري الصين المبدع رقم واحد، لأنّني جعلت الرئيس ماو حارسي الشخصي. شكّل ذلك المكان منـزلي لعامين، إلى أن خصّصت لي الوحدة شقّة من غرفتين. لكن حتّى بعد انتقالي، بقيت أحنّ إلى الأيّام التي أمضيتها مع الرئيس ماو.

طرق أحدهم بابـي في ربيع عام 1992. كان خِيْ دجِيوُو، بعد كلّ هذه السنوات. ابتسم عندما سألته كيف تمكّن من العثور عليّ. وقال بعد لحظة: "لا يذهب المرء إلى الهيكل من دون سبب".

سألته: "ماذا تريد؟ إن كنت تحتاج شيئاً، سأفعل ما بوسعي".

قال لي إنّ لديه وظيفة بدوام كامل في مكتب نقل حكومي في مونغوليا الداخلية، وإنّه يبحث عن طريقة للعودة إلى غاومي من أجل رعاية أبويه المسنَّين. فكتبت رسالة إلى رئيس مقاطعة غاومي وطلبت من خِيْ إيداعها في مكتب المقاطعة. عندما سألته ماذا حلّ بالغاز 51، حدّق إليّ متعجّباً. قال: "ظننت أنّك عرفت، فقد بعتها إلى طاقم فيلم تشانغ يمو. كانت الشاحنة التي حمّلها جيانغ وين والآخرون بجرار من شراب السورغوم، وتحوّلت إلى قنبلة على عجلات".

إذاً، كانت تلك شاحنة والد لو وينلي!

"إذاً كما ترى، ساهمتُ بفيلمك".

صحت متعجّباَ: "لكنّ غطاء المحرّك بدا مختلفاَ".

"أنت لم تفهم، أليس كذلك؟ كان ذلك الطاقم ذكياً جدّاً ليحاول تمرير شاحنة سوفياتية على أنّها يابانية من دون تغييرها. ما كان الأمر لينجح، فالناس سيلاحظون الفرق".

"وما هو المبلغ الذي حصلت عليه؟"

"بعتها كخردة معدنية. فقد مكثَت في باحة من ـزل والدي لسنوات، ولم أعرف ماذا أفعل بها. لذلك عندما سنحت لي الفرصة للتخلّص منها، لم أتردّد".

عدت إلى غاومي لتمضية رأس السنة القمرية في أوائل عام 1993. فأتى خِيْ دجِيوُو ليخبرني أنّ نقله تمّ وأنّه يعمل في مكتب تشينغداو لشؤون غاومي. فقلت له: "لا شكّ أنّك تعرف كيفيّة إنجاز الأمور".

"الفضل يرجع إلى رسالتك".

خلال السنوات التالية، غالباً ما أتى إلى بكين ودعاني إلى وجبات باهظة الثمن. من الواضح أنّ أحواله كانت على خير ما يرام. كان يدعوني في كلّ مرّة للذهاب إلى تشينغداو التي يمارس فيها تجارة مزدهرة،لم يعد لديه تعاملات مع غاومي. قال: "في أيّ وقت تأتي فيه إلى تشينغداو، سأتحمّل جميع نفقاتك".

كان يزوّدني بأخبار زملائنا في المدرسة، حتّى أنّه عرف أخبار الأساتذة. عرفت منه أنّ تشانغ، أستاذ الإنشاء، تقاعد من وظيفة مدرّس سياسة في إحدى ثانويات المقاطعة، وأنّ أحد أولاده يتاجر في الخشب، والآخر كان أمين سر ّحزب ـي في عصبة الشباب الشيوعية في منطقة تشينغنان. واحتلّ ليو ذو الفم الكبير منصباً عالياً هو نائب رئيس قسم التعليم في المقاطعة. بعد وفاة زوجته، تزوّج لو وينلي، التي أصبحت أرملة في سنّ شابّة. كان زوجها الأوّل هو ابن شخصيّة مرموقة في المقاطعة، إلاّ أنّه عاش حياة من المجون، حتّى أنّه كان يضربها، كما قيل. وفي أحد الأيّام، اصطدمت درّاجته النارية بشجرة. لكن ما أردت معرفته هو كيف أصبحت زوجة ليو ذي الفم الكبير. قلت: "هذا لا يصدّق!"

ضحك خِيْ دجِيوُو. "وهل تسديد كرة الطاولة في فم الخصم هو أمر يصدّق؟"

كلاّ، هذا لا يصدّق فعلاً، وهذا يثبت أنّ شؤون العالم في حالة تغيّر مستمرّ، وأنّ مصيراً سعيداً قد يجمع بين العشّاق، وأنّ الحوادث تقع في كلّ وقت، وأنّ الأمور الغريبة ترافقنا دائماً. فماذا يسعني أن أقول؟

7

قمت بزيارة خاصّة إلى تشينغداو لرؤية خِيْ دجِيوُو في أغسطس 2008. سبق أن أتيت إلى المدينة إمّا لإلقاء محاضرات أو لحضور اجتماعات، إلاّ أنّني كنت دائماً على عجلة من أمري بحيث لم أتمكّن من زيارته، وهذا الأمر لم يسرّه. "ما رأيك بالمجيء لثلاثة أيّام لنتحدّث، أنا وأنت فقط؟ لديّ الكثير لأخبرك إيّاه، أمور من شأنها أن تلهب خيالك وتساعدك على كتابة رواية جهنّمية. منذ زمن طويل، أقرضتني عشرة ينّات، والآن سأسدّدها لك على شكل مادّة لرواية".

حجز جناحاً فاخراً في فندق هيتشوان إمبيريال، مع إطلالة بانورامية على المحيط، وقريب منه بما فيه الكفاية لنسمع صوت تكسّر الأمواج. ما إن وصلت حتّى بدأ يحكي لي عن تجاربه خلال الأعوام الثلاثين الماضية. وعلى مدى الأيّام الثلاثة التالية، لم يُرِح لسانه أبداً، سواء كنّا جالسين نتناول الشراب أو نتمشّى على الشاطئ. طلب كلّ الأطايب التي يمكن تخيّلها، وأكلتها كلّها تقريباً وحدي. قلت له: "ساعدني، فأنا لا أستطيع أكل كلّ ذلك، وأكره أن أدعه يذهب سدى".

قال: "أنت كُلْ، فأنا لديّ ارتفاع بالمعدّلات الثلاث: الكوليسترول، وضغط الدم، والسكّري، ولا أستطيع أكل هذه الأشياء". فكان يكتفي بالشراب، والتدخين، والتحدّث. وبما أنّه طلب من سائقه أخذ عطلة خلال الأيّام الثلاثة، كان يقود السيّارة بنفسه صعوداً وهبوطاً على طول الشاطئ.

"هل ينبغي أن تقود بعد كلّ ما شربته؟"

أجاب: "لا تقلق، فأنا مثل وُوْ سونغ؛ الشراب يجعلني أقوم بالأشياء على نحو أفضل".

قلت: "لكنّ الشرطة لا تعرف ذلك".

ضحك قائلاً: "لا أظنّ أنّهم مهتمّون في إلقاء القبض عليّ". جلوسه خلف عجلة القيادة لم يكن له تأثير على حديثه المتواصل، الذي رافقته حركات يديه بانتظام.

"ألا تظنّ أنّه عليك التركيز على القيادة؟"

"لا تخف، فبعد ثلاثين عاماً من القيادة، ما إن أجلس خلف المقود حتّى أتّحد مع سيّارتي. لكن لو تيانغونغ، أصبح الآن سائقاً. كان الجسر الحجري خلف القرية يتّسع بالكاد لشاحنته الغاز 51، لكنّ الشابّ عبَره من دون أن يرفع قدمه عن دوّاسة السرعة".

استغرقت بعض الوقت لأفهم من يكون لو تيانغونغ، وأدركت أنّه ثمّة فجوة بيني وبين خِيْ دجِيوُو.

"أنفقت مائة وعشرين قرشاً من العشرة ينّات التي أقرضتني إيّاها لشراء تذكرة إلى ويفانغ، على قطار من تشينغداو إلى شينيانغ. أردت السفر بالتذكرة حتّى أصل إلى وجهتي، إلاّ أنّها لم تكن تصلح للذهاب أبعد من ويفانغ. وكان التفتيش صارماً جدّاً، إذ رافق شرطيان للسكك الحديدية السائق للتأكّد من أنّ أحداً لم يحاول الحصول على رحلة مجّانية. وإن وقعتَ في أيديهم، من المحتّم أن يتمّ طردك من القطار، وقد تتعرّض للضرب أحياناً. كان يجلس أمامي جندي من جيش التحرير الشعبـي، ويعلّق شريط حداد أسود، فافترضت أنّ أحد أبويه قد توفي. كما تعرف درست علم الفراسة على يد الجدّ وانغ غي" - في الواقع، لم أكن أعرف - "فتجاذبت معه أطراف الحديث للتعرّف عليه، رغبة في نيل حظوة عنده. وعندما قلت له إنّني أعرف والده منذ زمن طويل، صدّق كلّ كلمة. فقلت له، "يا أخي، لديّ مشكلة، وآمل أن تساعدني فيها". فمدّ يده إلى جيبه وأخرج بطاقة إلى شينيانغ. قال لي بصوت منخفض: "خذ، استعمل هذه، ثمّ دُسّها تحت فنجان الشاي الخاصّ بـي عندما تنتهي منها". في تلك اللحظة أتى خادم عبر الممرّ يحمل إبريق شاي، فأخذه منه الجندي وصبّ الشاي للركّاب من حولنا. قال له الجميع إنّه لي فينغ[2] حيّ. كان جنود جيش التحرير الشعبـي يحتلّون المرتبة العليا في ذلك الوقت. بمساعدته، تمكّنت من السفر إلى شينيانغ من دون متاعب. واليوم، ما زال احترامي للجيش كبيراً بقدر ما كان في الماضي.

"تزوّجت ابنتي الكبرى نقيب غوّاصة نووية في أسطول بحر الشمال، وشقيقتها الصغرى تواعد المفوّض السياسي للغوّاصة. أنا أؤيّد خياريهما من كلّ قلبـي، لأنّ هذا يعني أنّ أسرتي ستدير ذلك المركب!" وانفجر ضاحكاً بعد قول ذلك.

"زوجتي هي سليلة أسرة روسية بيضاء طَردت من بلادها من قبل البلاشفة. إنّها روسية إثنية ولدت ونشأت في الصين، وهي مواطنة من هذه البلاد. كنت ثرياً أساساً في عام 1979، وأملك ثمانية وثلاثين ألف ينّ في المصرف. لطالما كنت مجازفاً لكنّني لا أقوم بشيء أبداً من دون إتمام واجباتي. في أعقاب الجلسة الحادية عشرة للجنة المركزية الثالثة للحزب الشيوعي الصيني، كان عام 1978 عاماً حاسماً. إذ جرت إصلاحات ريفية، وتمّ حلّ البلديات، وأصدرت عقود لحراسة الأراضي. في الواقع، أوّل ما خطر في بالي هو أنّ أكثر ما يحتاج إليه الفلاّحون المتعاقدون هو الحيوانات الزراعية؛ الخيول والثيران. في ذلك الوقت، كان من الممكن شراء حصان بحجم جيّد في مونغوليا الداخلية لقاء أربعمائة ينّ، وبيعه بألف ينّ في أيّ مكان جنوب سور الصين العظيم. وكان بالإمكان بيع ثور بعمر عامين، تمّ شراؤه بمائتين، لقاء ستّة على الأقلّ في الجنوب. فبعت متجر التصوير المربح الذي أملكه في العاصمة مقابل عشرة آلاف، واستخدمت المال لشراء ثلاثين حصاناً. بعد ذلك، استأجرت راعياً لنقلها إلى الجنوب. لكن عند وصولهم إلى مقاطعة خيبـي، كان الراعي والأحصنة منهكين من الرحلة ولم يتمكّنوا من إيجاد علف للحيوانات. ساءني ما رأيت، ثمّ خطرت لي فكرة. أخذت الأحصنة إلى المجمّع الحكومي في مقاطعة شوانهوا. هناك، بحثت عن رئيس المقاطعة وأخبرته أنّني راعي خيول مونغولي، وأنّني سمعت أنّ الفلاّحين مُنحوا عقوداً لحراثة الأرض، لكنّهم يعانون من نقص في حيوانات المزارع في وقت الحصاد. وقلت له إنّني أحضرت ثلاثين من أحصنتي الخاصّة، وهي حيوانات جيّدة، وأودّ أن أتبرّع بها لهذه القضيّة من دون مقابل. لم يصدّق الموظّف الذي كان يدعى باي، لكنّني أكّدت له أنّني لا أريد شيئاً لقاء ذلك. فخرج، وعندما رأى كلّ تلك الحيوانات الجميلة، قال لي: "لا أستطيع قبول هذه الأحصنة من دون دفع ثمنها. سأعطيك ثمانمائة ثمناً لكلّ رأس". فقلت له: "هذا كثير، ادفع ستمائة، وإن أردت المزيد، سأعود إلى مونغوليا الداخلية وأجلب لك مائة منها. يمكنك إرسال شخص معي، وسأساعد في عمليّة الشراء". هكذا أصبحت تاجر خيول في ذلك الربيع، وجنيت ربحاً بقيمة ثمانية وثلاثين ألف ينّ. وسرعان ما نشأت صداقة بيني وبين رئيس المقاطعة، الذي يحتلّ الآن منصب نائب المحافظ".

"عندما أصبحت أملك مالاً في المصرف، حان الوقت لأتزوّج وأؤسّس عائلة، فقرّرت العودة إلى الديار لأحقّق حلم شبابـي. سأبوح لك بأمر: لطالما كنت مغرماً سرّاً بلو وينلي. هكذا قرّرت شراء شاحنة أبيها كهديّة، لنعود بها معاً إلى مونغوليا الداخلية لنقوم بشيء كبير ونجني ثروة. سألت وعلمت أنّ المزرعة تحوّلت إلى نظام العقود، وأنّ لو تيانغونغ كان الآن هو المالك الفخور لتلك الشاحنة. فأرسلت له برقية أعرض عليه فيها ثمانية آلاف، وهو ثمن باهظ بجميع المقاييس، يصلح لشراء غرايت ليب إن جي 130 جديدة من صنع نانجينغ، على طراز غاز 51. أمّا قيمة شاحنته الحقيقية فلم تكن تتجاوز الألفين".

"عندما أعطيته الثمانية ألف ينّ، قلت له إنّها هدية وإنّ لديّ دافع خفيّ، مثل شياندجوانغ الذي يؤدّي رقصة سيف للتغطية على محاولته اغتيال ليو بانغ. قلت له: خِيْ دجِيوُو يشتري شاحنتك مقابل يد ابنتك. فضحك وقال: لا تظنّ أنّني لم أعرف ذلك، فأنت لا تستطيع إخفاء نواياك عنّي. لكنّ قرار الزواج متروك لها، ولن نتدخّل لا أنا ولا أمّها. الأمر لك. لكن يا بنيّ، لن أعوّل كثيراً على ذلك لو كنت مكانك. فابن نائب أمين عامّ الحزب وانغ معجب بها. ولأقول الحقّ، يبدو الشابّ ذو العينين المراوغتين خياراً سيّئاً. أمّا هو، فإنّه ابن نائب أمين عامّ الحزب، وإن وافقت وينلي، سنؤيّد قراراها أنا وأمّها. فمهما حدث بعد ذلك، سيكون لنا شرف القرابة من نائب أمين عامّ الحزب ما استمرّ زواجهما".

قال خِيْ دجِيوُو إنّه تباهى بنفسه بقيامه ببضع جولات في أنحاء القرية في شاحنته "الجديدة" غاز 51. "ماذا يمكنني القول، كنت شابّاً غبيّاً! قدت الشاحنة مباشرة إلى عاصمة المقاطعة. لا شكّ في أنّك تتساءل متى تعلّمت القيادة. في عام 1976، حين كنت أعمل عتّالاً في مصنع للطوب، نشأت علاقة صداقة بيني وبين سائق شاحنة يدعى شو، وهو من علّمني. حين كنت في القرية، كنت معجباً بمهارات لو تيانغونغ في القيادة. لكن صدّقني، قيادة شاحنة هو أمر يمكنك تعلّمه في المدّة التي يستغرقها تدخين سيجارة. على أيّ حال، توجّهت إلى مصنع المطّاط للتحدّث مع وينلي. لكنّ الحارس قال لي إنّها نُقلت إلى مكتب البريد في البلدة. قال العجوز الثرثار: "كيف يمكن لزوجة ابن نائب أمين عامّ الحزب أن

تعمل في مصنعٌ مطّاط بالكاد يستطيع المرء أن يتنفّس فيه؟" من هناك، توجّهت إلى مكتب البريد، ثمّ ركنت السيّارة، واشتريت حذاء جلدياً جديداً من أحد المتاجر في الشارع. كان صلباً بحيث صعب عليّ السير فيه بسهولة، وشعرت وكأنّ كلّ من في الشارع يحدّقون إلى قدميّ. رأيت وينلي حالما دخلت؛ كانت جالسة خلف مكتب الطوابع تتحدّث مع امرأة في منتصف العمر. توجّهت نحوها وقلت: "لو وينلي،أنا خِيْ دجِيوُو زميلك في المرحلة الابتدائية. والدك أرسلني". لم تعرف بماذا تجيبني للحظة، ثمّ سألت بنبرة باردة: "ماذا تريد؟" أشرت إلى الشاحنة المركونة في الخارج، وقلت: "هذه شاحنة والدك، أرسلني لكي أصطحبك". أجابت: "لكنّني أعمل". قلت: "لا بأس، سأنتظرك في الشاحنة حتّى تنتهي من عملك".

"هكذا خرجت، ثمّ ركبت في الشاحنة وأشعلت سيجارة. لم تكن المدينة تتمتّع بأيّ سحر على الإطلاق في ذلك الوقت. كان مكتب المحافظة المؤلّف من ثلاثة طوابق هو أعلى مبنى في المدينة، وبينما جلست في الشاحنة أنظر إلى العلم الأحمر الذي يرفرف على السطح، وإلى أشجار الصنوبر خلفه، فاجأني إحساس كئيب جدّاً. قبل أن أنهي سيجارتي، خرجت وينلي، ففتحت لها الباب لتصعد. شغّلت محرّك الشاحنة، وقدتها من دون أن أطرح أيّ سؤال. قالت: "هلاّ أخبرتني من فضلك ماذا يجري؟" تجاهلت سؤالها، وأسرعت وأنا أنظر إليها من زاوية عيني. بدأت تصفر، محيطة كتفيها بذراعيها. كان ذلك جديداً، وقد أعجبني. صدق المثل القائل إنّ المرء لا يعرف كيف ستكون الفتاة عندما تكبر. بعدما خرجنا من البلدة، قدت الشاحنة إلى حقل خال قرب ملعب الثانوية الأولى، وتوقّفت هناك. لماذا هناك؟ لأنّه المكان الذي فازت فيه ببطولة كرة الطاولة. التفتُّ ونظرت إليها. كانت جميلة حقّاً، لكنّها عرفت بوجود أمر ما، فأخذت حذرها على الفور، ناهيك عن بعض الانـزعاج الذي بدا عليها. "ماذا تريد بالضبط؟" دخلت في الموضوع من دون مقدّمات، مع أنّني كنت أستطيع ذلك. قلت: "وينلي، أنت تعجبينني منذ أن كنّا معاً في المدرسة. وفي ذلك اليوم الذي طُردت فيه من الصفّ، نذرت أنّني، إن أصبحت ثرياً يوماً ما، سأعود وأتزوّجك. عندما فزتِ بالمركز الأوّل هنا" - أشرت إلى مكتب الثانوية، الذي كان كنيسة مسيحية في الماضي ومركز بطولة كرة السلّة - "تعهّدت أن أكوّن نفسي قبل أن أعود للزواج منك". لوت شفتها قليلاً وقالت: "وهل جمعت ثروة؟ هل كوّنت نفسك؟" أجبت: "يمكنني قول ذلك. كم تكسبين في الشهر؟" لم تجبني. "لا بأس، فأنا أعرف. أنت تكسبين ثلاثين يناً في الشهر، أي ثلاثمائة وستّين في السنة. هناك في مونغوليا الداخلية، جنيت ثمانية وثلاثين ألف ينّ من بيع حيوانات المزارع، أي ما يمكن أن تكسبيه خلال مائة عام. أعطيت والدك ثمانية آلاف ينّ لقاء هذه الشاحنة القديمة البالية، لكي يحصل هو وأمّك على ما يحتاجان إليه في شيخوختهما، بحيث لن تضطرّي للقلق حول رعايتهما. لديّ كثير من الأصدقاء هناك وكلّ شيء جاهز. بذلك المبلغ كرأسمال، يمكنني -بل يمكننا - خلال بضعة أعوام الالتحاق بصفوف جماعة المائة ألف. لا بل قد نصبح مليونيرَين! أعدك أنّك أوّلاً، لن تحتاجي أبداً إلى المال، وثانياً، سأكون دائماً صالحاً معك".

قالت بالنبرة الجليدية نفسها: "مع الأسف، خِيْ دجِيوُو، أنا مخطوبة". قلت: "لكنّك لست متزوّجة. وحتّى لو كنت كذلك، يمكنك الطلاق". أجابت: "كيف تتحدّث هكذا؟ ما الذي يجعلك تظنّ أنّك تستطيع المجيء والعبث بحياتي؟ كونك اشتريت شاحنة والدي البالية؟ أم لأنّك تملك ثمانية وثلاثين ألف ينّ؟" قلت: "لو وينلي، لن أسمح لك بعيش حياة بائسة لأنّني أحبّك. لقد سألت. وانغ جيانجون ذاك هو صائد نساء..." قاطعتني قائلة: "خِيْ دجِيوُو، هذا كلام خسيس". أجبتها: "هل محاولة إنقاذك هي أمر خسيس؟" قالت: "شكراً جزيلاً، لكنّنا نعيش أنا وأنت في عالمين مختلفين، وأنا قادرة على العناية بنفسي. ليس لديك الحقّ بالتدخّل". سألتها: "ألن تعيدي النظر حتّى؟" أجابت: "ابقَ بعيداً عنّي وحسب يا خِيْ دجِيوُو، اتّفقنا؟ إن عرف وانغ جيانجون ما الذي تخطّط له، سيرسل شخصاً يضربك حتّى الموت". ابتسمت وقلت: "أريده أن يعرف، اذهبـي وأخبريه". فتحت الباب وترجّلت من الشاحنة. "خِيْ دجِيوُو، لا تنسّ من أنت بسبب مبلغ صغير من المال. صدّقني، المال ليس كلّ شيء". ثمّ استدارت وبدأت تمشي باتّجاه البلدة. وبينما حدّقت إلى ظهرها، أدركت أنّها على حقّ، فالمال ليس كلّ شيء. لكنّك لا تستطيع فعل شيء من دونه، هذا مؤكّد. فكّرت: "اعتني

بنفسك يا لو وينلي".

"ذهبت إلى البيت، وهدمت جداراً لكي أتمكّن من إدخال شاحنة والد وينلي إلى الفناء، ثمّ غطّيتها بالقنّب وأعدت إصلاح الجدار. طلبت من والدي أن يعتني بها. فقال غاضباً: "أعتني بها؟ ما الذي سيحدث؟ هل ستنبت لها أجنحة وتطير؟" فطلبت منه النظر إلى المدى البعيد؛ قد تفيدنا يوماً ما. وبعدما تأكّدت من أنّ والديّ يحصلان على الرعاية اللازمة، عدت إلى مونغوليا الداخلية مع إخوتي، وبدأنا ببيع أشياء مثل الخشب، والماشية، والكشمير، وبدأ المال يتدفّق علينا. كنت أتمتّع بالحدس والذكاء، وسأروي لك قصّة قصيرة لإثبات ذلك".

"في تلك الأيّام، لم يكن البيع الخاصّ للكشمير قانونياً، ما يعني أنّ تهريب طن منه إلى الصين من شأنه أن يدرّ أرباحاً ضخمة، تصل إلى عشرات آلاف اليّنات. كانت الحكومة قد وضعت حاجزاً عند الجدار، فقمت بشراء شاحنتين متشابهتين، حمّلت الأولى بأقمشة القطن، والأخرى بالكشمير. وبعدما غطّينا حمولة الشاحنتين، قدناهما إلى مكان بجانب نقطة التفتيش، بحيث ركنّا شاحنة الكشمير وقدنا الأخرى لتفتيشها. وبينما كان الضبّاط يفتّشون الحمولة، قدّمت لهم السجائر، وزجاجتين من الشراب الجيد، ووعدتهم بإحضار بعض الأشياء التي يريدونها من الجنوب في المرّة القادمة التي أمرّ فيها. عبرنا الحدود من دون عناء. ثمّ التففت وعدت، وقلت للمفتّشين إنّني تركت الإطار الاحتياطي هناك وعليّ العودة لأخذه. قدت الشاحنة إلى حيث ركنّا شاحنة الكشمير، ثم أخذت الشاحنة الثانية هذه المرّة إلى المعبر، وقلت لهم إنّني وجدت الإطار. فلوّحوا لي، وسمحوا لنا بالمرور. بفضل تلك الخدعة الصغيرة، وفي ربيع عام واحد، قمنا أنا وإخوتي ببيع أربعين طن من الكشمير وجنينا أربعمائة ألف رينمينبـي. مع ازدياد نقودي، اتّسعت حظيرة أصدقائي، وتمكّنت من الحصول على تصاريح إقامة لإخوتي، كما عثرت لهم على وظائف في شركة نقل محلّية. في ذلك الحين، كانت لدينا ثقة عمياء في تصاريح الإقامة والوظائف الدائمة".

"قمت برحلة أخرى إلى الديار في عام 1982 لبناء منـزل جديد لوالديّ. غير أنّني لم ألمس المنـزل القديم الذي كانت الشاحنة لا تزال مركونة فيه، بل اكتفيت بتبديل غطائها البالي. لم يعد والدي يعارضني حيالها. قال لأمّي: "دجيوُو هو ابن كريم، لذلك ما من سبب لسؤاله عمّا يفعل". كانت لو وينلي قد تزوّجت من وانغ جيانجون، لكنني لم أفقد الأمل. ثمّ سمعت أنّها تعيش حياة سعيدة، فرأيت أنّ الوقت قد حان للزواج".

"لم يكد يذيع خبر بحثي عن عروس حتّى طرقت بابنا أكثر من عشر خاطبات. كانت كلّ الفتيات اللواتي قدّمنهنّ لي مناسِبات، لكنّني رفضتهنّ جميعاً. ثمّ أتت فتاة إلى منـزلنا من تلقاء نفسها. من كانت؟ من غير زوجتي، جوليا، التي كانت تعمل في محطّة الثروة الحيوانية في المنطقة. كان الناس يطلقون عليها لقب "الموت المزدوج". فمن الخلف، كانت تبدو امرأة رائعة الجمال، لكن من الأمام، كان وجهها المكسوّ بآثار الجدري مخيفاً. قالت: "أخي خِيْ، لماذا تريد الزواج؟" فكّرت لدقيقة ثمّ أجبت: "لسببين: أريد إنجاب الأطفال، وأحتاج إلى شخص يطهو لي الطعام ويغسل ملابسي". أجابت: "إذاً أنا الشخص المناسب". فكّرت لدقيقة، ثمّ صفعت يدي على فخذي وقلت: "أنت الشخص المناسب! لنذهب حالاً إلى مكتب التسجيل". شكّل زواجي مدار حديث المنطقة بأكملها. فكّر فقط أنّ أغنى رجل في المنطقة بأكملها، خِيْ دجيوُو، اختار امرأة مكسوّة بآثار البثور زوجة له. لم يفهموا، بالطبع، لم يتمكّنوا من ذلك. لكنّكَ ستفهم في اللحظة التي يقع نظرك على ابنتَي أخيك رائعتَي الجمال، وابن أخيك نجم كرة القدم. فعيب زوجتي الوحيد هو آثار الجدري على وجهها الحسن التكاوين، وهذه الآثار لا تنتقل من جيل إلى آخر. أمّا جيناتها الروسية البيضاء، وشكلها المثالي، فمن الممكن أن تنتقل، وقد فعلت. ليس هذا فحسب. فلو تزوّجتُ امرأة من عرق الهان، لما سُمح لنا بإنجاب أكثر من طفل واحد. لكن عند الزواج من امرأة روسية بيضاء، يسمح القانون بإنجاب طفلين، ولم يكن من الصعب زيادة العدد إلى ثلاثة. الآن أصبحتَ تعرف كيف تمّ أسر إحدى غوّاصاتنا النووية! فالفتيات الجميلات ذوات الدم الهجين مرغوبات جدّاً، ولا يمكن مقارنتهنّ بأحد. لقد فكّرت بكلّ شيء. إن لم يستطع الرجل الزواج من المرأة التي يحبّها، عليه الزواج من أيّ امرأة تجلب له أكبر قدر من المنافع. وبالنسبة إليّ، كانت تلك المرأة هي جوليا".

"بحلول التسعينيات، أدركتُ أنّ المناطق الساحلية مناسبة إن أردت فعلاً أن أضرب ضربة جديدة. فبحثت عنك لتساعدني على الانتقال إلى منطقتي، ومن هناك إلى تشينغداو. في البداية، كانت زوجتي متردّدة في ترك منـزلنا في مونغوليا الداخلية، لكنّني قلت لها إنّني سأبني منـزلاً من عدّة طوابق في تشينغداو" - وأشار إلى منـزل كبير باللون القشدي - "ها هو هناك". ثمّ انتقل ليخبرني عن كلّ مشاريعه الكبيرة، التي نسيتها كلّها على الفور، بما أنّها كانت سلسلة من الأموال المنفَقة، والأصدقاء الذين تعرّف عليهم، والنكسات الطفيفة، والمكاسب السهلة الضخمة.

قلت له: "أتساءل ما إذا كنت تذكر تلك المسرحية التي مثّلناها في بداية الثورة الثقافية؟ تلك التي ارتديتُ فيها سترة الأستاذ تشانغ الرثّة، وحشوتها بطابة سلّة لتأدية دور خروتشوف زعيم روسيا السوفياتية، بينما سرّحتَ شعرك بمسحوق أبيض لتأدية دور خروتشوف الصين، ليو شاوتشي؟ هل تذكر الكلمات؟

ثمّ غنّيت أنا: . ثمّ غنّيت أنت: .

حسناً، هذا هو سرّ نجاحك، تتكبّد خسائر صغيرة وتستمتع بأرباح سهلة ضخمة".

فكّر قليلاً، ثمّ قال: "هذا صحيح عموماً، ولكن ليس تماماً. ففي حالات كثيرة أُمنى بخسائر فادحة من دون أن أستمتع بأيّ مكاسب، سواء كانت سهلة أم صعبة".

"هل تشير إلى شرائك شاحنة والد لو وينلي الغاز 51؟"

أجاب متذمّراً: "كم أنت ضيّق الأفق. أنا لا أفعل شيئاً من دون تحليل التكاليف. لكنّ صفقتي مع لو وينلي كانت الاستثناء الوحيد".

"هل ذهبت لرؤيتها بعد وفاة زوجها؟"

"لقد قُتل في حادث في عام 1993. في ذلك الوقت، كنت في تشينغداو، أعمل في تجارة الفولاذ، شريكاً لعشيقة شخصيّة كبيرة. وبفضل نفوذ ذلك الرجل، تمكّنا من احتكار توريد الفولاذ إلى جميع مشاريع البناء في تشينغداو. أغراني نبأ ترمّل وينلي، وأخبرت زوجة أخيك بما حدث بيننا. فطلبت منّي بكرم كبير أن أذهب لإحضارها وجلبها إلى المنـزل معي، إمّا كزوجة رسمية أو كعشيقة لي. لكن قبل أن تسنح لي الفرصة للذهاب إليها، جاءت لرؤيتي. كانت ترتدي تنّورة سوداء وقفّازات بيضاء، وكانت ممتلئة ولا تزال جميلة، مع أنّها قاربت منتصف العمر. تركت المجاملات، وقالت: "خِيْ دجِيوُو، لقد تمكّنت من تجاوز الأوقات الصعبة". كان هذا هو الوقت المناسب لي لكي أكلّمها بصراحة. فسألتها: "ماذا تريدين، أن تكوني زوجتي أم عشيقتي؟" "زوجتك، بالطبع". قلت: "هذا لن يكون سهلاً. من الأفضل لك أن تكوني عشيقتي. سأبني لك منـزلاً على شاطئ البحر، وأهتمّ بكلّ نفقاتك". قالت مع ابتسامة حزينة: "إذاً، لن أزعجك بعد الآن".

حسناً، لم يمضِ وقت طويل حتّى وصلني خبر زواجها من ليو ذي الفم الكبير. فأخذت زجاجتين من الشراب وعلبتين من السجائر، وقدت سيّارتي إلى الأرض الشاغرة أمام مزرعة نهر جياو العامّة، التي اعترفت فيها لوالد وينلي بإعجابـي بابنته. جلست هناك أشرب، وأدخّن، وأفكّر. لطالما كنت فخوراً بقدرتي على قراءة أفكار الناس، ومعرفة ماذا يجول في خاطرهم، بينما كنت في الواقع أحكم على فضائلهم من زاوية مصالحي الصغيرة. كان سبب نجاحي في معرفة ما في قلوب الناس هو أنّ معظم الأشخاص الذين عرفتهم كانوا تافهين مثلي، أمّا لو وينلي فكانت واحدة من الناس المستقيمين".

عشية رحيلي عن تشينغداو، تناولت العشاء مع خِيْ دجِيوُو في منـزله. حضّرت زوجته فطائر ثمار البحر، وأعدّت طبقاً من صلصة الثوم، على طريقة أهل غاومي. كانت امرأة حنونة، زائدة الوزن، تعرف من نظرة واحدة أنّها زوجة صالحة وأمّ حنون. كنّا قد بدأنا نفرط في الشراب عندما أطفأ خِيْ دجِيوُو المصباح، وطلب منّي النظر إلى نافذة المطبخ. نظرت لأرى سلسلة من الأشكال التي تشبه القطع النقدية البرونـزية المستديرة مع ثقوب مربّعة في الوسط منعكسة على الزجاج، تتألّق مثل الذهب. سألته من أين يأتي ذلك الانعكاس، إلاّ أنّه لم يكن يعرف. قال: "أودّ أن أعرف، لكنّ جميع محاولاتي لتحديد مصدرها باءت بالفشل. ما من منـزل من المنازل الكبيرة على الشاطئ يؤثّر بـي. هذا هو المكان الذي أريد أن أكون فيه".

أوشكت أن أعتبره بخيلاً، لكنّني تراجعت. فكلّما امتلك أناس مثله مزيداً من المال، تضاعفت خرافاتهم، وأصبحوا يرغبون في سماع الأحاديث اللائقة فقط، ويتجنّبون بشدّة العبارات المشؤومة. لذلك، وعوضاً عن قول "بخيل"، وصفته "مستفيداً من مصادر الثروة". فأعجبته العبارة.

قال: "وحده الأديب الناجح يستطيع إيجاد الاستعارة المناسبة".

اتّصل بـي خِيْ دجِيوُو بعد عودتي إلى بكين ليخبرني أنّه عثر على قطعة أرض قرب البحر في لونغكو، التي يرغب بالعمل فيها في مجال العقارات. سألني: "هل لديك الوقت للمجيء لرؤيتي؟ فالرجل المسؤول عن مكتب إدارة الأراضي هو شو ليان، ابن الرئيس شو، رئيس محطّة العمل في مقاطعة هوانغ، والرجل الذي عملتَ لديه بعد تجنيدك. فقد أضاء وجه شو ليان عندما ذكرت اسمك، وقال إنّك رأيته وهو يكبر". فكّرت بالأمر للحظة، لكنّني في النهاية اختلقت ذريعة لعدم الذهاب.

8

في شهر مايو من ذلك العام، نظّمت وزارات الثقافة، والإذاعة، والتلفزيون في مقاطعة غاومي أوّل مسابقة أداء ماوتشانغ. وأتى الرئيس لو من وزارة الثقافة شخصيّاً إلى بكين ليطلب منّي تأدية دور حكم. لم يكن من اللائق أن أرفض، فقلت إنّه يسرّني ذلك. قبل ثلاث سنوات، اعتُبر غاومي إرثاً ثقافياً وطنياً حيّاً. ولكي ينتقل هذا النوع الدرامي إلى الأجيال القادمة، قرّرت الحكومة ومقرّ الحزب تأسيس فرقة للشباب، بحيث يتمّ إرسال أربعين طفلاً من المدارس الابتدائية للتدرّب في أكاديمية الفنون في ويفانغ، ثمّ يُعيّنون في وظائف عند تخرّجهم. وأُعطيت لذلك أهمّية كبيرة، بفضل المسابقة التلفزيونية إلى حدّ ما، وتقدّم أكثر من خمسمائة شخص. كلّ يوم، كان يتوافد إلى بيت الضيافة معارف، وأصدقاء، وأقارب طالبين مساعدتي ليتم قبول أبنائهم في الفرقة، وسرعان ما بدأ ذلك يزعجني. لم أستطع العودة إلى بكين لأنّه كان منتظراً منّي العمل مع مسؤولين أدبيين لحفز إنتاج مسرحيات لفرقة ، فحجز لي الرئيس لو غرفة في فندق آخر لوضع حدّ للمطاردة التي أتعرّض لها. لكن، صدّق أو لا تصدّق، في اليوم الذي انتقلت فيه، تلقّيت رسالة على هاتفي الخلوي: "زميلي القديم العزيز، أنت لا تتذكّرني على الأرجح. أنا لو وينلي، وأنا موجودة في الأسفل في مكتب الاستقبال في الفندق. هلاّ نـزلت لرؤيتي؟ لن آخذ من وقتك أكثر من خمس دقائق".

جلسنا إلى طاولة في مشرب الفندق. عندما أتى النادل، سألتها ماذا تحبّ أن تطلب. "هل تقدّمون المشروبات؟" لم أكن أتوقّع ذلك.

أجابها بابتسامة متعالية: "بالطبع نفعل، ماذا تحبّين؟"

"لا فرق، المهمّ أن يكون شراباً".

نظر إليّ النادل الذي لم تفارق الابتسامة وجهه.

قلت: "كأسان من الشراب الفرنسي". بدأ يذكر قائمة الخيارات. "أحضر لنا أفضل ما لديك وحسب".

قالت لو وينلي: "الشراب على حسابـي، أصرّ على ذلك".

قلت: "لا حاجة إلى ذلك، سأضعها على فاتورتي".

لم تبدِ ردّ فعل على الفور، لكنّها قالت بعد ذلك بصوت ضعيف: "آه، نسيت أنّك أصبحت مشهوراً الآن، ولا أراك إلاّ على شاشة التلفزيون".

قلت: "أنت تبالغين الآن. المحتال لا يخشى شيئاً أكثر من ابن قريته، باستثناء زميل مدرسة قديم ربّما. لكن أنا وأنت كنّا أكثر من زملاء في المدرسة، فقد تقاسمنا مقعداً واحداً".

"لم أكن أعتقد أنّك ما زلت تذكر".

"لا شكّ أنّك تمزحين! فبعد سنّ الخمسين لا تذكرين ما حدث بالأمس، لكنّ الذكريات القديمة تزداد وضوحاً عاماً بعد عام".

قالت: "أعرف ماذا تقصد. لقد بدأت تلك الأيّام تظهر في أحلامي".

"هذا يثبت أنّنا نتقدّم في السنّ".

قالت: "يُعتبر الرجل في عزّه في الخمسينات، لكن في هذه السنّ تكون المرأة عجوزاً شمطاء". كانت ترتدي تنّورة سوداء فضفاضة، لكن ليس إلى حدّ يخفي امتلاء خصرها. ذلك الوجه الطويل، والنحيل، والرقيق الذي أتذكّره أصبح الآن مستديراً، بينما تهدّلت أجفانها فوق عينيها اللتين أحاطت بهما هالتان داكنتان. عندما وصل الشراب، طرقنا الكأسين وأخذَت من كأسها رشفة كبيرة.

سألتها: "كيف حال الأستاذ ليو؟"

قالت بحسرة: "لقد رحل".

سألتها بذهول: "كيف... كان في عقده السادس..."

"أخشى أنّني مثل الأرملة السوداء..."

"أرجوك لا تتكلّمي هكذا".

أخذت رشفة أخرى من الشراب بينما لاحت الدموع في عينيها. قالت وهي تنظر إلى

عينيّ مباشرة: "كانت الحياة قاسية معي". وددت لو أنّ بوسعي التخفيف عنها، لكنّني لم أعرف كيف. لذلك رفعت كأسي وطرقته بكأسها مجدّداً. هذه المرّة، أرجعت رأسها إلى الخلف وأفرغت كأسها تماماً. "لكن دعنا نتحدّث في موضوع آخر. أودّ أن أطلب منك خدمة". أخرجت صورة فوتوغرافية وأعطتني إيّاها. "هذه ابنتي، ليو هوانهوان. سجّلتها في امتحان فرقة للشباب. وقد اجتازت المرحلتين الأولى والثانية، وهي الآن في قائمة الستّين. جميع الأسر الأخرى تعمل جاهدة لكي يتمّ اختيار أولادها، كما سمعت، لذلك دُست على كبريائي وأتيت إلى هنا". تأمّلت الصورة. كانت ليو هوانهوان كبيرة الفم والعينين، والفضل في ذلك يرجع إلى الأستاذ ليو، إلاّ أنّها تقريباً صورة طبق الأصل عن والدتها. عاودتني ذكرى مبهمة للحكّام وهم يذكرون اسم ليو هوانهوان، فأرسلت رسالة نصّية إلى الرئيس لُو، وحصلت منه على ردّ فوري: "مؤهّلة بامتياز، لو تمّ اختيار اثنين فقط، ستكون واحدة منهما". أريت الرسالة إلى لو وينلي، فانهمرت الدموع من عينيها على الفور. قلت لها: "أصبح بإمكانك الاسترخاء الآن، أليس كذلك؟"

قالت وهي تشهق: "شكراً لك، شكراً جزيلاً".

قلت: "لا تشكريني. فابنتك تتمتّع بكلّ الشروط؛ المؤهّلات، والإمكانيّات، والامتحان، كلّها ممتازة".

قالت: "أعرف ما حدث هنا اليوم. شكراً لك يا زميلي القديم". مدّت يدها إلى حقيبتها وأخرجت مغلّفاً. هذه عشرة آلاف. آمل أن تكون كافية لكي تقدّم للرئيس لو والآخرين زجاجة من شيء فاخر..."

فكّرت بالأمر للحظة، ثمّ قلت: "حسناً، يا زميلتي القديمة، سآخذها".

انتهى

---

[1] وحدة وزن في الصين وجنوب شرقي آسيا، تساوي نحواً من رطل إنكليزي وثلث.

[2] لي فينغ (1940-1962) كان جندياً في جيش التحرير الشعبي وتحوّل بعد وفاته إلى رمز لانعدام الأنانية والتواضع.